

الدعوة الفاطمية دعوة الحق والحضارة

الدكتور علي حسني الخريوطي

الموسم

دعوة الحق والحضارة هي الدعوة الإسماعيلية التي تفرعت عنها الدعوة الفاطمية، التي لا تزال قائمة حتى اليوم، تساهم في إعزاز دين الله، وفي رفع شأن الأمة الإسلامية، وفي ازدهار حضارة الإسلام.

حرص الإمام جعفر الصادق على تنشئة ابنه الأكبر إسماعيل النشأة الإسلامية السامية وغرس في نفسه علمه وسجاياه، حتى يكون خير خلف لخير سلف، فيحمل أمانة الإمامة بعده كما حملها هو وآبؤه وأجداده الأكرمون رضي الله عنهم جميعاً.

وشاءت الأقدار أن ينتقل الإمام إسماعيل إلى جوار ربه في حياة أبيه العظيم، وبذلك انتقلت الإمامة إلى محمد بن إسماعيل، فالإمامة لا تكون إلا في الأعقاب ولا تنتقل من الأخ إلى أخيه بعد الإمامين الحسن والحسين رضي الله عنهما.

اكتسبت طائفة الشيعة الإمامية بإمامة إسماعيل اسم (الإسماعيلية) فكانت هذه التسمية خيراً وبركة، فقد تطورت هذه الطائفة ونمت وازدهرت، حتى أصبحت أعظم فرق الشيعة في كل زمان ومكان، ثم توجت نصرها وتوفيقيها بإقامة الدولة الفاطمية، أعظم الدول الإسلامية حضارة ومجداً.

وبدأ الإسماعيليون جهاداً من لون جديد، فهو الجهاد الإيجابي الواقعي الفعال، الذي يحفظ لطائفهم البقاء والنماء والإزدهار، ويتيح لها الفرصة المؤكدة لتحقيق الأهداف والآمال. ولذا أصبحت طائفة الإسماعيلية أكثر فرق الشيعة أنصاراً ومريدي، وأعظمها حضارة ورقياً، إذ ساهمت المساهمة الإيجابية في الحضارة العالمية، وأصبح لها في كل عصر ومكان تراث حضاري مشهود، أفادت به البشرية جمعاء.

كما خرجت الإسماعيلية بدعوتها إلى آفاق عالمية أرحب، فلم تعش في الدائرة العربية المحدودة، تحقيقاً لعالمية الدين الإسلامي وحضارته وإمامته ودعوته.

تولى الإمامة أئمة إسماعيليون، كانوا على جانب وفير من الذكاء والعبقرية واتساع الأفق،

استفادوا من التجارب الماضية، ومن خبرات الحياة، كما سايروا سنة الحياة والتطور.

لقد شهدوا في أواخر العصر الأموي حركات علوية ثورية، لمعت ثم انطفأت سريعاً كالنجم المتوهج الذي سرعان ما يخبو، نتيجة نقص في الإعداد والتنظيم، وفي وسائل الدعوة والإعلام، ولذا حرص الأئمة الإسماعيليون رضي الله عنهم، على توفير سبل النجاح والفوز لدعوتهم، حتى تزدهر وتثمر، ورأوا أن -يجمعوا بين الكفاح وبين الصبر والتمهل، فجعلوا دعوتهم تخضع للمنهج العلمي، وتساير ظروف العصر ومتطلبات الزمان والمكان، والإسلام هو دين التطور والارتقاء، ولذا أصبح صالحاً لكل عصر وبيئة، ونتيجة هذا التخطيط والتنظيم وذلك التطوير المنهجي أصبحت الدعوة الإسماعيلية تتصف بالعالمية من جهة، وتصلح لكل عصر وزمان من جهة أخرى. واتجه الأئمة الإسماعيليون اتجاهاً جديداً واقعياً مفيداً، فقد استتروا وبثوا دعائهم الماهرين المخلصين في جميع الأقطار الإسلامية، وقد سار الأئمة الإسماعيليون في هذا المنهج على طريق جددهم العظيم رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد بدأ التبليغ بالإسلام وبما أنزله الوحي بالدعوة السرية، التي استمرت ثلاث سنوات، حتى إذا توافرت ظروف العلنية، أمر الله عز وجل رسوله الأمين بالدعوة جهراً، مما كتب لدعوة الإسلام الازدهار والانتشار.

تحدث الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) عن استتار الأئمة الإسماعيليين فقال: (وبعد إسماعيل، محمد بن إسماعيل، السابع التام، وإنما تم دور السبعة به، ثم ابتدئ منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون في البلاد سراً، ويظهرون الدعوة جهراً، وقالوا: لن تخلو الأرض قط من إمام حي قائم، إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، فإذا كان الإمام ظاهراً جاز أن يكون حجته ودعائه ظاهرين ثم بعد الأئمة المستورين كان ظهر المهدي بالله، والقائم بأمر الله وأولادهم نصاً بعد نص، على إمام بعد إمام).

ضيق الخلفاء العباسيون على العلويين وشيعتهم في كل الأقطار الإسلامية، واستشهد كثير من الثوار العلويين مثل محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في عهد الخليفة المنصور، والحسين بن علي (أحد أحفاد الإمام الحسن بن علي) في عهد الخليفة الهادي. ولذا رأى الأئمة الإسماعيليون الاستتار مع استمرارهم في نشر دعوتهم، اتقاء لطغيان الخلفاء العباسيين، مثلما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام في السنوات الثلاث الأولى للدعوة الإسلامية تجنباً لاضطهاد المشركين، فكان الرسول الكريم والمسلمون الأولون يصلون في شعاب جبال مكة أو في دار الأرقم في أطراف مكة.

كان ميمون القداح هو أشهر دعاة الإمام محمد بن إسماعيل وبعد وفاة هذا الإمام انتقلت الإمامة إلى ابنه عبد الله الرضي الذي استتر أيضاً واعتمد على كبير دعائه عبد الله بن ميمون القداح وتبع العباسيون هذا الإمام المجاهد فتنقل هو وابنه في بلاد الشام التي أصبحت (دار هجرة) للجماعة الإسماعيلية.

ثم تولى الإمامة الإمام أحمد بن عبد الله الرضي، الذي اعتمد في الدعوة على عبد الله بن

ميمون، واتسعت دائرة الدعوة الإسماعيلية الذي وجه اهتمامه إلى نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن، فقد تولاهم الداعيان الكبيران ابن حوشب وعلي بن فضل منذ سنة ٢٦٨هـ. ومن اليمن امتدت الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب، فاختار داعية هو (أبو عبد الله) وبعثه على ابن حوشب باليمن لتدريبه على وسائل الدعوة (سنة ٢٧٨هـ) ولنرى الآن كيف تطورت الدعوة الإسماعيلية حتى أئنت وأثمرت بقيام الدولة الفاطمية.



اهتم الإسماعيليون بنشر دعوتهم في بلاد اليمن، مدفوعين بعدة أسباب منها بُعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية في العراق، وكان الخلفاء العباسيون قد ضيقوا الخناق على الشيعة جميعاً، كما أن الظروف السياسية في اليمن كانت تفسح المجال لانتشار الدعوة الإسماعيلية نتيجة ما أصاب هذه البلاد من انحلال سياسي، ولوجود فئات كثيرة من الشيعة إلى جانب ميل كثير من أهالي اليمن إلى التشيع، مما يوجد أسساً وطيدة يمكن بناء الدعوة الإسماعيلية عليها. كما كان الإسماعيليون يعتقدون أن بلاد اليمن هي الأرض الصالحة لإقامة دعوتهم فيقولون: (البيت يمانى، والركن يمانى، والدين يمانى، والكعبة يمانية، ولن يقوم هذا الدين ويظهر أمره إلا من قبل اليمن).

وصل علي بن فضل وابن حوشب إلى بلاد اليمن في أول سنة ٢٦٨هـ فأقاما باليمن سنتين يدعوان مستترين، ثم ظهرت الدعوة جهراً باليمن سنة ٢٧٠هـ وبدأ الداعيان نشاطاً عسكرياً من أجل فتح بلاد اليمن، بعد أن نجحوا في العامين السابقين في جذب كثير من اليمنيين إلى الدعوة الإسماعيلية بما اتصفوا به من تدين وتقوى وزهد وحمل ابن فضل لواء النشاط العسكري، وفتح مناطق واسعة منها صنعاء وزبيد ولحج بينما كان معظم اهتمام ابن حوشب موجهاً نحو نشر الدعوة الإسماعيلية. قام ابن حوشب ببناء حصن في جبل لاعة أصبح مركز الدعوة الإسماعيلية، وبعث ابن أخيه الهيثم إلى السند لنشر الدعوة الإسماعيلية وانتقلت أخبار جهود ابن حوشب إلى الشيعة في العراق فهرعوا إلى اليمن هرباً من وجه العباسيين، ولا غرو أن اكتسب ابن حوشب اسم (منصور اليمن) بعد هذه الانتصارات الرائعة.

واهتم ابن حوشب بنشر الدعوة الإسماعيلية خارج بلاد اليمن فأرسل دعاة إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب وكتب ابن حوشب إلى الإمام محمد الحبيب يصف له مدى انتشار الدعوة الإسماعيلية.

ووجه الإمام محمد الحبيب اهتمامه إلى بلاد المغرب، ورأى أن يكون نشر الدعوة الإسماعيلية فيها هي الخطوة الثانية بعد نجاح انتشارها في بلاد اليمن واختار الإمام أبا عبد الله الشيعي داعية، وبعثه إلى ابن حوشب باليمن للتدريب على وسائل الدعوة.

وكان الإمام موقناً أن بلاد المغرب هي المكان الصالح لتحقيق الآمال بقيام دولة إسماعيلية فاطمية علوية، حتى أن الإمام قال لابنه المهدي بعد أن سمع بانتصارات ابن حوشب في اليمن: (وهذه دولتك قد قامت، لكن لا أجد ظهورها إلا من المغرب) كما قال الإمام لولي عهده عن هذه الانتصارات: (هذه ثمرة أيامك وبركة دولتك).

تم تدريب أبي عبد الله الشيعي على وسائل نشر الدعوة، وغادر اليمن في طريقه إلى المغرب، ليتم العمل العظيم الذي كان قد قام به في هذه البلاد داعيان كبيران هما الحلواني وأبو سفيان. وكانت ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب تجعلها صالحة تماماً لانتشار الدعوة الإسماعيلية، فقد كان البربر السكان الأصليين للمغرب يعانون من مظالم الحكم العباسي ويتطلعون إلى إقامة جديدة في المغرب تحقق لهم العدل والأمن والرخاء.

مر أبو عبد الله ببلاد الحجاز، حيث أدى فريضة الحج، واتصل بحجاج قبيلة كتامة وهي من أعظم قبائل المغرب، ونجح في الفوز بثقة ومحبة الكتامين، ثم صحبهم في رحلتهم في طريق دعوتهم على وطنهم المغرب، على أن يتخلف عنهم في مصر، ولكنهم ألحوا عليه في المضي معهم إلى المغرب فاستجاب لدعوتهم، ووصلوا في ربيع الأول من سنة ٢٨٠هـ.

واتجه أبو عبد الله إلى جبل (إيكجان) وفيه فج الأخيار، فقال هناك: (هذا فج الأخيار وما سمي إلا بكم، ولقد جاء في الآثار: للمهدي هجرة من الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم اسمهم مشتق من الكتمان وبخروجكم في هذا الفج سمي فج الأخيار).

وقدمت على أبي عبد الله قبائل البربر تطلب منه أن يحدثهم عن فضائل الإمام علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده رضي الله عنهم، وما لبث أبو عبد الله أن صرح لهم عن أهدافه الحقيقية وبث بينهم تعاليم الدعوة الإسماعيلية، فأقبلوا عليها إقبالاً عظيماً وأعلنوا ولاءهم وإخلاصهم للإمام الإسماعيلي وأصبح فج الأخيار في إيكجان -مركزاً للدعوة الإسماعيلية و(دار هجرة)، وكان بربر المغرب من أكثر المسلمين حباً لآل البيت.

أقامت الدولة العباسية في المغرب دولة موالية لها هي دولة الأغالبة لتواجه بها دولة علوية أخرى قامت في المغرب وهي دولة الأدارسة، واتسع نطاق دعوة أبي عبد الله، وتناهت الأخبار بذلك إلى الأمير إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب، فبعث برسول له إلى أبي عبد الله يطلب منه الرحيل عن المغرب ويهدده ويتوعده.

وطلب أبو عبد الله من رسول الأمير إبلاغه رده، فهو لا يعبأ بالتهديد والوعيد، وهو واقف على مواطن الضعف في دولة الأغالبة، عارف بمظالم بني الأغلب وهو لا يطمع في عرض الدنيا، ثم دعا أبو عبد الله الأمير الأغلبي -في آخر رسالته الشفهية- إلى طاعة الإمام عبد الله المهدي سليل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وارتاع الأمير الأغلبي حينما نقل إليه رسوله حديث أبي عبد الله، وزاد من خطورة الموقف في دولة الأغالبة تشيع بعض أبناء البيت الأغلبي وبعض خاصتهم.

وفي تاصروت (أوب تازروت) بني أبو عبد الله قصراً لسكنه، وأقطع أنصاره دوراً حول القصر، وقدم آلاف من الشيعة يشيدون لهم بيوتاً، حتى تكامل شكل (دار الهجرة).

تدعم نفوذ أبي عبد الله، ونجح في تكوين (مجتمع شيعي إسماعيلي) في (دار الهجرة) وقد تحدث القاضي النعمان في رسالته الخالدة (افتتاح الدعوة) عن هذا المجتمع فقال: (فلم ير الناس ولا انتهى إليهم أن قوماً كانوا من صلاح الحال والاستقامة على مثل ما كان عليه أصحاب أبي عبد الله) فكان التجار يرحلون بقوافلهم في أمن وسلام، وإذا سقط من أحدهم شيء، بقي في مكانه حتى يعود صاحبه ليأخذه.

وأراد أبو عبد الله أن يكون أبناء (المجتمع الإسماعيلي) في دار الهجرة يداً واحدة، وعمل على تهذيب أخلاقهم، حتى يكون مجتمع الخير والبركة، وحقق للجميع المساواة والعدل والإخاء، حتى كان الواحد ينادي الآخر (يا أخانا) وحثهم على أداء شعائر الإسلام، بينما سمي أعداءهم (الكافرين) وحلت الرابطة الاجتماعية الأخوية الجديدة في المجتمع الإسماعيلي محل الرابطة القبيلة القديمة.

وأصبح أبو عبد الله قدوة طيبة لأبناء هذا المجتمع الجديد، فكان مثلاً أعلى في الصلاح والتقوى والزهد والتقشف واستمر على ارتدائه الخشن والمرقع من الثياب وجعل القرآن الكريم دستوراً له في جميع تنظيماته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكان مثلاً للتواضع والتسامح، فكان أبناء المجتمع ينادونه (يا أخانا) كما ينادون سائر الناس، وظل فترة طويلة بدون زواج، حتى إذا تزوج أخيراً أكتفى بهذه الزوجة دون الزواج بغيرها.

ووصف القاضي النعمان أحوال هذا المجتمع الإسماعيلي فقال: (وتحامى الناس المصائب وتركوا الاختلاف في المذاهب، وصاروا على أمر واحد يتسمون إخواناً).

واهتم أبو عبد الله بتنظيم مجتمعه الجديد في دار الهجرة فقسم كتابه أسبوعاً وجعل لكل سبع منها عسكرياً، وقدم عيه مقدماً، وخصص لكل موضع داعياً، وسمي المقدمين والدعاة (المشايع) رغم أنهم لم يكونوا من المتقدمين في السن، وتولى هؤلاء المشايخ تدبير أمور أبناء المجتمع، وتوزيع ما يحوزة من غنائم عليهم بالعدل والقسطاس.

واهتم أبو عبد الله بالدعاة، فكان يهتم بإعدادهم ويمتحن إخلاصهم، ويعاهدهم على الموت، وتولى تعليمهم وتدريبهم بنفسه، فكان يطيل الجلوس إليهم، يوصيهم ويذكرهم ويعظهم، وينصحهم، ويحثهم على التعاون والتواصل وحسن معاملة الناس وأصبح أبو عبد الله قدوة لهم، إذا اشتهر بالزهد في عرض الدنيا ومباهج الحياة.

كما اهتم أبو عبد الله بنساء مجتمع (دار الهجرة)، فكانت النسوة يحضرن مجالس أبي عبد الله، ويسمعن الوعظ والإرشاد، كما كن يخدمن (المؤمنين) ويعالجن المرضى والجرحى.

كانت هذه الجهود العظيمة التي بذلها الداعي أبو عبد الله من وحي قريحة الإمام الإسماعيلي، ومن تخطيطه وتوجيهاته، وإذا كان أبو عبد الله قد حقق نجاحاً واسعاً فعلاً، فلأن الإمام قد أحسن اختيار دعائه، واهتم بتدريبهم على أسس علمية منهجية، وكان الإمام قد التقى بأبي عبد الله من كفاءته وصلاحيته، ثم وجهه إلى بلاد المغرب ورسم له سبل النجاح والتوفيق. وقد أيقن الإمام أن الدولة لا تقوم من فراغ، ولابد من إقامتها على أسس وطيدة متينة، حتى يتحقق لها البقاء والرخاء، والدول لا تقوم إلا على مقومات أخلاقية واجتماعية «وانما الأمم الأخلاق ما بقيت».

وكانت (دار الهجرة) هي النواة الأولى للدولة، فقد أصبحت هذه الدار هي (المدينة الفاضلة) التي طمع في ظهورها الفلاسفة القدماء، فقد اهتم أبو عبد الله بالتنظيم الاجتماعي وبالتهديب الأخلاقي، وجعل الدين أساساً للتنظيم والتهديب، والدين هو دائماً منبع القيم الإنسانية والمثل العليا الأخلاقية، ولا يمكن أن تقوم دولة كبرى إلا على أسس ودعائم، وقد أصبح المجتمع الإسماعيلي الفاضل الأساس الوطيد الذي أقام الفاطميون عليه دولتهم الزاهرة.

أصبح المجتمع الإسماعيلي هو مجتمع الحرية والإخاء والمساواة ومجتمع الوفاء والصفاء والنقاء، أمن مستتب، واستقرار اجتماعي، وعدل اقتصادي في إطار من التدين والتصوف، أضفى على هذا المجتمع غلالة روحية سمت به ورفعت ذكره.

وهذا المجتمع المثالي جعل البربر يقارنون بينه وبين النظم الرجعية القديمة البالية التي سادت وما زالت سائدة في دولة الأغالبة (وهي دولة عباسية سنية) وصار البربر يتمنون زوال الحكم الأغلبي، ويرجون اتساع دائرة هذا المجتمع الإسماعيلي حتى يشمل كل أرجاء شمال إفريقيا.

ولم يكن هذا المجتمع الإسماعيلي الجديد يهدد دولة الأغالبة فحسب بل كان يهدد أيضاً النظام القبلي القديم السائد في بلاد المغرب منذ قرون طويلة.

إن الرابطة في القبيلة هي رابطة الدم، ولذا فإن قومية البربر هي قومية قبلية أما المجتمع الإسماعيلي الجديد فهو يعتبر (دار الهجرة) هي الوطن، ولذا فالرابطة بين أبناء المجتمع هي رابطة وطنية، إذ تربطهم وحدة اجتماعية ووطنية، تؤدي إلى وحدة المصير، وإلى وحدة الأموال والأهداف فقد كانت (دار الهجرة) هي البوتقة التي انصهر فيها كل العناصر التي سكنتها فزال ما كال بينهما من خلافات كما أصبح المذهب الإسماعيلي أيضاً رابطة فكرية تمثل وحدة الرأي والمبدأ والفكر.

ولذا كان لابد أن تصطدم دار الهجرة، ويصطدم المجتمع الإسماعيلي بدولة الأغالبة وبالقبايل التي تريد الاحتفاظ بنظمها القبلية القديمة، ولابد من صدام الجديد الناهض المتطور، بالقديم الرجعي المتأخر في سنة الحياة، في كل زمان ومكان.

وبدأ جهاد أبي عبد الله، من أجل اتساع الدولة الإسماعيلية، وامتداد دار الهجرة إلى أرجاء المغرب، وأصبح من المحتتم أن يغزو المجتمع الجديد الناهض المتحد أراضي المجتمعات القبلية ومجتمع بني الأغلب التي تتصف بالتخلف والانحلال بحكم الزمن، ونتيجة فساد وتحلل النظم السياسية والاجتماعية.



وانتقل أبو عبد الله من نصر إلى نصر، وفتح كثيراً من المدن، وهو يتلقى دائماً وباستمرار توجيهات الإمام محمد الحبيب ونصائحه، كما كان أبو عبد الله يكتب له بأخبار انتصاراته، فيباركها الإمام وخلال هذه الانتصارات الرائعة، مات الإمام محمد الحبيب، وخلفه ابنه الإمام عبد الله المهدي، رضي الله عنهما.

واستمر جهاد أبي عبد الله، وتوالت انتصاراته، ورأى انه قد أصبح من القوة وسعة النفوذ مما يسمح له بدعوة الإمام الجديد عبد الله المهدي للقُدوم إلى بلاد المغرب فبعث برجال من كتامه إلى الإمام، يخبروه بما فتح الله عليه، وإنهم ينتظرون مقدمه السعيد المبارك، فالتقوا به في مدينة سلمية قرب حمص بالشام، وبدأ الإمام المهدي رضي الله عنه رحلته التاريخية إلى المغرب، ولقي خلال رحلته كثيراً من المخاطر فقد كتب الله عز وجل على الأئمة الأشراف أن ينتقلوا من جهاد إلى جهاد من أجل إعلاء رايات الإسلام.

ومضى أبو عبد الله في انتصاراته وقضى على دولة الأغالبة، ووطد في رقاده والقيروان، وبدأ في تنظيم الحكومة، فأمر خطباء المساجد بالصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين الإمام علي بن ابي طالب وعلى الإمامين الحسن والحسين وعلى السيدة فاطمة الزهراء، رضي الله عنهم أجمعين، وأن يكون الأذان حي على خير العمل.

وصف القاضي النعمان في رسالته خروج الإمام المهدي قاصداً بلاد المغرب بأنه (هجرة دار قراره بالشرق)، فقد قال له أبوه الإمام محمد الحبيب: (إنك ستهاجر هجرة بعيدة وتبقى محنة شديدة).

وغادر الإمام المهدي (سلمية) بالشام ومعه ابنه وولي عهده (القائم) وكان غلاماً، وصحب أيضاً معه خاصته ومواليه، ومنهم جعفر الحاجب، وتبعه ولاية العباسيين خلال رحلته الخالدة، كما تعرض الإمام لقطاع الطرق، وما لبث ان قبض عليه والي سجلماسة ونجح أبو عبد الله والإسماعيليون في إطلاق سراحه في رمضان سنة ٢٩٦هـ.

ووصف القاضي النعمان احتفالات سجلماسة بالإمام المهدي فقد شهدت هذه المدينة موكباً عظيماً، تقدمه الإمام، وولي عهده القائم، ومشى أبو عبد الله بين يدي الإمام وهو يقول للناس: (هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون) وحمد الله عز وجل وشكره ويكى من شدة الفرح وقدمت القبائل على الإمام المهدي تعلن له ولاءها.

وبدا عهد جديد سعيد.. وقامت الدولة الفاطمية في المغرب، وبدأ ذكر اسم الإمام المهدي في خطبة الجمعة كأمر المؤمنين وإمام المسلمين.. وشهدت المغرب شروق شمس دولة عظيمة ذات حضارة عالمية زاهرة.. وازدان تاريخ الإسلام بصفحات عديدة من المجد والفضار.



الدولة الفاطمية في المغرب ومصر

قامت الدولة الفاطمية في القيروان في المغرب، وبدأت صفحات جديدة رائعة من صفحات تاريخنا الإسلامي المجيد، وقد نجح الأئمة الإسماعيليون -كما رأينا- في إقامة دولتهم العظمى على أسس حضارية، ولم يكتفوا بحقوقهم المشروعة في إمامة المؤمنين فقامت الدولة على أسس اجتماعية وأخلاقية، نواتها حكومة منظمة تحقق العدل والأمن والسلام، وتنفذ المساواة، وتوفر الحرية، ويسودها شعور الإخاء، وهدفها تحقيق رفاهية الشعب ورخاء الأمة، ولذا مضت الدولة الفاطمية قدماً في طريق الحضارة، حتى أصبحت أعظم دول عصرها، وسارعت دول العالم تخطف صداقتها ومعاوناتها. والدولة الفاطمية تمثل (الظهر) المشرق المنير للدعوة الإسماعيلية الفاطمية وهي التطبيق العملي الإيجابي لهذه الدعوة، وهي مظهر النجاح والفوز والتوفيق فقد ملأت الشمس الفاطمية سماء العالم بأنوار الحضارة وبأشعة المدنية، وبددت هذه الأنوار الساطعة السحب القائمة التي كانت تظلل سماء العالم، وهي سحب الظلم والاستبداد والتأخر والفاقة.

والمؤرخ إذا أراد أن يحيط بتاريخ الدولة الفاطمية وحضارتها، فإنه يحتاج إلى العديد من المجلدات الضخمة، وهذا الفصل يقدم للقارئ الكريم صورة سريعة موجزة للتاريخ السياسي للدولة الفاطمية، وسنخصص الفصل القادم بإذن الله لتقديم صورة رائعة من حضارة الدولة الفاطمية الزاهرة.



أصبح الإمام عبد الله المهدي سنة ٢٩٧هـ أول خلفاء الدولة الفاطمية وهو الإمام سعيد بن محمد الحبيب كان مولده سنة ٢٥٩هـ في (سلمية) بالشام التي اتخذها الأئمة الإسماعيليون مركزاً للدعوة.

لقد كان الهدف من هذا الجهاد الطويل والكفاح المرير الذي بذله الأئمة الإسماعيليون إقامة دولة إسلامية مثالية، تشمل العالم الإسلامي، تحكم بكتاب الله الحكيم، ويسنة رسوله الأمين، وتحقق العدل والحرية والرخاء، بعد أن عانى المسلمون من حكم كثير من الدول الإسلامية التي تولت مقاليد أمور الأمة الإسلامية عبر العصور، في مشارق الأرض ومغاربها، فلم يكن إذاً الهدف قيام دولة فاطمية في جزء من بلاد المغرب هي تونس الحالية بل كان هذا الجزء هو نقطة الانطلاق لبيسط الأئمة الفاطميون عدلهم وحضارتهم على سائر أرجاء العالم الإسلامي.

ولذلك بدا الإمام المهدي جهوده من أجل التوسع شرقاً وغرباً، فبعث حملات عسكرية إلى مصر، لم تنجح عسكرياً بسبب تكاتف أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين والإخشيديين، ولكنها نجحت سياسياً ومذهبياً، فقد بدأت الدعوة الإسماعيلية تجد طريقها إلى مصر، وأقبل كثير من المصريين على الإيمان بها وياتوا يترقبون قدوم الأئمة الفاطميين إلى مصرهم.

أما في المغرب فقد قضى الإمام المهدي على دولة الأدارسة، وكان قد أصابها الانحلال والفساد، كما اصطلمت بالدولة الأموية في الأندلس، ونحن نعرف ذلك العداء الأموي القديم لبني هاشم، كما نجح الإمام المهدي في تهديد جنوب إيطاليا، مما يدل على تفوق قواته البحرية، واهتم الامام بتنظيم شؤون دولته الداخلية وتوطيد دعائم العدالة والنظام، وقضى على البقية الباقية من الاضطرابات الداخلية من مخلفات الماضي البائد.

ثم تولى الإمامة أبو القاسم محمد بن الإمام عبد الله المهدي سنة ٣٢٢ هـ وتلقب بأمر الله، وكان في الثالثة والأربعين من عمره المجيد ونجح في غزو برقة وتاهرت ووطد فيهما نفوذ الفاطميين، وفي عهده برزت قبيلة صنهاجة، واحتلت مكانة قبيلة زناتة، وواجه الإمام القائم في شجاعة وثبات ثورة ضخمة قام بها الخوارج بزعامة أبي يزيد مخلد كيداد، وانتهت الثورة بالإخفاق الذريع، بعد جهاد مريع قاده الإمام الشجاع.

وتولى الإمامة بعد القائم ابنه المنصور سنة ٣٣٤ هـ، وكان شاباً مقداماً في الثانية والعشرين من عمره، واشتهر بالشجاعة ورباطة الجأش وبالبلاغة والفصاحة والمقدرة الفائقة على ارتجال الخطب، ونجح الإمام الجديد في تدعيم جيشه بأبطال قبيلة صنهاجة، فقضى تماماً على ثورة الخوارج سنة ٣٣٦ هـ، وضرب الإمام خلال القتال أروع الأمثلة للبطولة والفداء.

ثم اهتم الإمام المنصور بالإصلاحات الداخلية، وتنمية موارد الدولة، وفي التعمير والبناء، وإنشأ أسطولاً ضخماً سيطر على البحر المتوسط، كما أسس مدينة المنصورية سنة ٣٢٧ هـ على مقربة من القيروان عاصمة للدولة.

وبعد سبع سنين مجيدة، توفي الإمام المنصور سنة ٣٤١ هـ فخلفه ابنه معد أبو تميم الذي أصبح اسمه الإمام المعز لدين الله، وورث عن آبائه الكرام دولة عظيمة، نجحوا في الخلاص من أعدائها، وفي توطيد دعائمها، ولذا أصبحت الظروف أمام الإمام المعز مهياة للمضي إلى مزيد من التقدم والمجد.

وكان الإمام المعز على درجة كبيرة من الثقافة والعلم، فهو يجيد عدة لغات منها اللغة التليانية التي تعلمها في صباه بجزيرة صقلية، واللغة الصقلية التي كانت منتشرة في هذه الجزيرة، كما كان ملماً باللغة السودانية، وحرص الإمام المعز على تحصيل العموم والأدب المختلفة واشتهر بالدراية بالسياسة والإدارة، وكان من أرشد الخلفاء الفاطميين، مما هيا له الفرص لتدعيم الدولة الفاطمية والسيطرة على جميع قبائل المغرب.

وضرب الإمام المعز أروع الأمثلة للورع والتقوى، وأصبح الصورة الحقيقية الصادقة للحاكم

الصالح والراعي المصلح، المحافظ على أحكام الإسلام، وروحه وفضائله، ولا غرو أن قارن المسلمون بينه وبين بعض الخلفاء العباسيين والأمويين الذي اشتهر عنهم انغماسهم في اللهو والعبث. وكان الإمام المعز يقضي يومه وليله في رعاية أمور رعاياه، وفي الاطلاع والدرس، أو في تأليف الكتب، أو تدوين الرسائل إلى عماله ودعائه.

وما أروع ما قاله الإمام المعز مما يصور اهتمامه برعاياه وحرصه على رفاهيتهم ورفع مستوى معيشتهم: (والله لقد كفيناً كثيراً ممن اختصاصناه منهم من أوليائنا وعبيدنا أمر دنياهم، وأطعمناهم مما نأكل وكسوناهم مما نلبس، وشاركناهم فيما نملك، وإنهم لياًكلون من ذلك، ويلبسون ويملكون مما لا تعب ولا نصب ولا كلفة عليهم فيه، وإنا لنتعب وننصب ونتكلف ذلك لهم، فهم على ذلك أخفض عيشاً منا فيه، وأقل تعباً واهتماماً به).

نجح الإمام المعز في أول عهده في القضاء على البقية من دولة الأدارسة التي حكمت بلاد المغرب الأقصى نحو قرنين، كما نجح في القضاء على روح الفتنة تماماً، مما أتاح الفرصة للإمام ليتفرغ للفتوحات الخارجية فاهتم بجزيرة صقلية، وكانت تخضع قبل قيام الدولة الفاطمية لدولة الأغالبية.

وكانت الدولة الفاطمية تعمل على إنشاء إمبراطورية كبرى في حوض المتوسط وتريد أن تجعل صقلية قاعدة للأسطول الفاطمي لتأمين شر غارات الروم على سواحل إفريقية، ولتنفيذ مشروع الفتح الفاطمي لمصر.

ولذا اهتم الفاطميون بتحقيق السيادة الفاطمية في حوض البحر المتوسط، فأنشأوا الموانئ البحرية، وأسسوا مدينة المهدية وجعلوها قاعدة للأسطول الفاطمي كما سيطر الفاطميون على جزيرة كورسيكا وأغاروا على جنوده وسردينية، وأصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية، ثم بدأ المعز يتفرغ لفتح مصر.

اختار الفاطميون بلاد المغرب ليقموا فيها الدولة الفاطمية، دون غيرها من البلاد، لأن بلاد المغرب بعيدة تماماً عن مركز الدولة العباسية بالعراق مما يوفر الفرصة أمام الفاطميين للعمل الإيجابي بعيداً عن السلطة المركزية في الخلافة العباسية ولكن الفاطميين كانوا يتمنون قيام دولتهم في قطر يتوسط العالم الإسلامي، مثل مصر إذ أن مصر تقع في مكان يتوسط القارتين الإفريقية والآسيوية كما كان وجود الفاطميين في مصر يمكنهم من التوسع شمالاً وشرقاً وغرباً. فقد كان حكام مصر دائماً عبر العصور يسيطرون على بلاد الشام، فيقترب الفاطميون بذلك من العراق قلب الدولة العباسية، كما يسيطر الفاطميون أيضاً على بلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفين، فيصبحون حماة الأماكن المقدسة، ويصبح الفاطميون بذلك أصحاب السلطة في أكبر عواصم الإسلام: القسطنطين، ودمشق، ومكة، والمدينة. ومن مصر يتمكن الفاطميون من التوسع غرباً في برقة وبلاد المغرب، كما أن مصر هي مفتاح البحر المتوسط، وقد رأينا الفاطميين يظهرهم اهتماماً بالسيطرة على حوض البحر المتوسط، إلى جانب ما تتصف به مصر من حضارة

وثرء ورءاء وهءوء.

ولذا نرى الفاطميين يحاولون منذ اللحظة الأولى لقيام دولتهم في المغرب فتح مصر، وتكررت محاولاتهم، في عزم وإصرار، وشاءت الأقدار أن يتم المشروع المأمول بنجاح مؤزراً في عهد الإمام المعز لدين الله، الذي هياً كل الأسباب التي تضمن نجاح المشروع، كما أن ظروف مصر الداخلية كانت تسمح بظهور المشروع ثانية ونجاحه، وأصبح للفاطميين بين المصريين كثير من الأنصار والأولياء.

استعد الإمام المعز لفتح مصر استعداداً كبيراً، فجمع الأموال الوفيرة، وقام بإنشاء الطرق، وحفر الآبار، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة في الطريق بين المغرب ومصر، وأعد جيشاً كثيفاً قوامه مائة ألف محارب، وفي مقدمتهم رجال من كتامة اشتهروا بالشجاعة والإقدام، وولى عليهم قائداً جسوراً هو جوهر الصقلي، وأمدّه بمال وفير وضعه في ألف ومائتي صندوق.

خرج جوهر الصقلي على رأس الجيش الفاطمي في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٥٨هـ (فبراير ٩٦٩م) لفتح مصر، وخطب المعز في جنده خطبة مسهبة شرح فيها هدفه من الفتح، وهو نشر نفوذه الديني والسياسي في المشرق، وأن سياسته تقوم على قاعدة، (العدل أساس الملك) وأنه يرمي إلى تعمير بلاده، ونصح للجند الكتاميين بالطاعة والإخلاص لئتم لهم فتح المشرق كما سهل أمر المغرب عليهم وخرج مع الجيش عدد من السفن الفاطمية.

وصل جوهر الصقلي إلى الإسكندرية، واختار المصريون أبا جعفر بن عبيد الله، وهو من الأشراف الذين ينتسبون إلى الإمام الحسين، ليفاض جوهرًا وكتب جوهر للمصريين عهداً تاريخياً، أصبح دستوراً للحكم الرشيد العادل، وعد فيه بإطلاق الحرية الدينية والمذهبية لجميع المصريين، وأن يقوم بما تطلبه البلاد من إصلاحات، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة وحماية مصر من المغيرين.

أعلن المصريون ولاءهم للإمام الفاطمي، ونبذوا طاعتهم للخليفة العباسي فقد أملاوا بعهد جديد سعيد ينهض بأوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية واقتصرت المعارضة على الكافوريين والإخشيديين، بقايا العهد القديم الذي ألهم ضياع السلطة منهم وفي ١٧ شعبان خرج الوزير ابن الفرات والأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة (على الضفة الغربية لنهر النيل) وقابلوا جوهر الصقلي وهناؤه بالفتح.

وعلم الإمام المعز بفتح مصر، فأبدى فرحه وسروره، فقد زال تماماً النفوذ العباسي والإخشيدي من مصر، وأصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية الفاطمية التي أصبحت تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً.

لكن مصر لم تصبح مجرد ولاية تتبع الدولة كما كانت في العصرين الأموي والعباسي، بل أصبحت مصر قلب الدولة الفاطمية، فقد انتقل الإمام المعز إلى مصر، واتخذ من القاهرة التي أنشأها جوهر عاصمة جديدة تنافس بغداد ودمشق وقرطبة والقيروان.

بدأ إنشاء جوهر لمدينة القاهرة في ليلة ١٧ شعبان ٣٥٨هـ وسماها المنصورية تخليداً لذكرى الإمام المنصور، والد الإمام المعز، وظلت تحتفظ بهذا الاسم حتى قدوم المعز بعد أربع سنوات فسمى عاصمته القاهرة وأنشأ جوهر سوراً حول المدينة الجديدة وبه أربعة أبواب: باب النصر، باب الفتوح، باب زويلة، وبنى قصراً للإمام المعز وهو القصر الشرقي الكبير، وبنى مسجداً جديداً يكون مركزاً للدعوة الفاطمية وهو الجامع الأزهر في ٤ رمضان سنة ٣٥٩هـ وسك عملة فاطمية جديدة، وأضاف إلى الأذان عبارة (حي على خير العمل) ثم كتب جوهر إلى الإمام المعز يدعوه للقدوم إلى مصر.

ورحل الإمام المعز إلى مصر، فصحب كبار رجال دولته، وجثث آبائه الأئمة السابقين في ٢٢ شوال ٣٦١هـ فوصل إلى الإسكندرية في ٢٣ شعبان ٣٦٢هـ، فقدم عليه أعيان البلاد مرحبين به، وخطب الإمام المعز في مسجد الإسكندرية، فذكر أنه لم يقصد بدخول مصر اتساع ملكه أو زيادة ثرائه، وأنه أراد إقامة الحق وحماية الحجاج، وإعلان الجهاد ضد الكفار، وأنه سيعمل بما أمر به جده محمد عليه الصلاة والسلام، ووعظ الإمام المعز أهل الإسكندرية بعبارات مؤثرة حتى استدرّ دموعهم.

أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار الإمامة، وأصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية بدلاً من المنصورية بالمغرب، وأسند الإمام المعز شؤون حكم مصر إلى جوهر الصقلي، وأبقى على الموظفين المصريين في وظائفهم، واستقرت تماماً الأوضاع الحكومية.

وحرص الإمام المعز على نشر الدعوة الفاطمية في مصر فأمر الإمام بنقش هذه العبارة على جدران مصر القديمة وهي: (خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) واعتمد الإمام على الشعراء في نشر الدعوة الفاطمية، وأقبل الشعراء على الرحيل إلى مصر من كل مكان، وأصبح الجامع الأزهر مركزاً للدعوة الفاطمية، وكان للإمام المعز داعي دعاة يساعده اثنا عشر نقيباً، ولكل نقيب نواب، وكان الفقهاء يلقون كل يوم اثنين ويوم الخميس محاضرات عن أصول المذهب الإسماعيلي.

ورأى الإمام المعز أن يسيطر الفاطميون على بلاد الشام فهذه البلاد هي خط الدفاع الأول عن مصر، وكانت الشام قد وقعت تحت سيطرة جماعة القرامطة الإرهابية التي عطلت وصول قوافل الحجاج، ولذا رأى الفاطميون تحرير الشام من ريقة القرامطة، كما أن الدولة البيزنطية كانت قد انتهزت فرصة ضعف الدولة العباسية واستولت على بعض مدن الشام، ولذا رأى الإمام المعز القيام بواجبه المقدس وفتح الشام ليمنع زحف الروم البيزنطيين جنوباً، فقد أصبح الإمام هو حامل لواء الجهاد الديني.

ثم بدأ الإمام المعز يعمل على امتداد نفوذه إلى بلاد الحجاز، حتى يكون الإمام الفاطمي حامي الأماكن المقدسة، وقامت الدعوة للإمام في مكة سنة ٣٦٣هـ وخطب باسمه على المنابر ثم أعلنت المدينة المنورة ولاءها للإمام سنة ٣٦٦هـ.

حكم الإمام المعز سنتين في القاهرة، وفي عهده أنشأت القاهرة وبنى الجامع الأزهر وامتد نفوذه إلى بلاد الشام والحجاز وكان الإمام المعز أول من اهتم بالاحتفال بالأعياد والمواسم والمواكب، ونعمت مصر في عهده بالرخاء والعظمة وقد استن الإمام لأول مرة إقامة الولائم في قاعة الذهب بقصر الإمام، وفي تلك القاعة كان ينعقد مجلس الملك، وكان يجلس على عرش فخم رائع، وأمر الإمام بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق وضَّح عليها كافة أقطار العالم، ثم توفي الإمام المعز في ربيع الثاني ٣٦٥هـ بعد أن حكم ٢٤ عاماً حفلت بالأمجاد والمفاخر فاستحق بجدارته أن يخلده التاريخ الإسلامي.

ويعد وفاة الإمام المعز خلفه في الإمامة ابنه (نزار) الذي أصبح لقبه الإمام العزيز بالله، وتولى الحكم وهو في الثانية والعشرين من عمره، وهو إمام شاب في دولة فتية، ولذا أصبح عصره من العصور الذهبية للدولة الفاطمية.

ويجمع المؤرخون على امتداح الإمام العزيز في أخلاقه وعقله وسياسته وتسامحه، وقد اشتهر بالذكاء والعقل المستنير، وحب العلم والأدب، وكان كآبيه الإمام المعز يجيد عدة لغات، ولذا شجع العلماء والأدباء، كما كان شاعراً مجيداً، وتميز بالعضو والتسامح والكرم والشجاعة والإقدام، ويعتبر عصره عهد يسرور وخاء وتسامح ديني وفكري، فقد انصرف تماماً إلى شؤون دولته والاهتمام برعاياه، وجمع حوله طائفة من العلماء والفقهاء والشعراء، وقام الإمام العزيز بتحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية كبرى بعد أن كان مكاناً للصلاة ومعهداً للفقه الإسماعيلي وقام الإمام بتنمية مكتبة القصر وتزويدها بالآلاف من الكتب كما كان الإمام جاداً دائماً في بلاطه.

ويعتبر عصر الإمام العزيز بالله عصر تسامح ديني، فقد نعم أهل الذمة من غير المسلمين (أهل الكتاب) بفترة هدوء وسلام واطمئنان، وفي رأينا أن هذا التسامح لا يرجع إلى زواج الإمام من مصرية مسيحية كما يذكر المؤرخون عادة، ولكن هذا التسامح كان جزءاً من أخلاق الإمام وصفة من صفاته، وقد شهدنا هذا التسامح على صور كثيرة فكان متسامحاً مع أعدائه وخصومه، وكان حريصاً على اكتساب محبة رعاياه من غير المسلمين. وهي السياسة التي وضع بذورها أبوه الإمام المعز حين احتفل بالأعياد المصرية القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل، كما اتسع تسامح الإمام العزيز فشمل اليهود في مصر أيضاً.

واشتهر الإمام العزيز بالكرم والعضو وسماحة الأخلاق، ويدلل المؤرخون على هذه الصفات بموقف الإمام من أفتكين التركي بعد أن نجح في هزيمته وأسره فقد عفا عنه وأغدق عليه الصلات، وخصص له داراً ليقيم فيها، وسمح له بالتردد عليه، وعلق المستشرق (آدم ميتز) على موقف الإمام العزيز من أفتكين فقال: (وقد ضرب الإمام العزيز أول مثل للفروسية بما تنطوي عليه من العضو وكبر القلب وهي التي أثرت فيما بعد تأثيراً في الغرب).

واشتهر الإمام بالشجاعة والجرأة، وبدت هذه الصفات واضحة وقت السلم في شغفه بالصيد وخاصة صيد السباع وفي وقت الحرب إذ قاد بنفسه الجيش الفاطمي الذي هزم أفتكين التركي، وهزم القرامطة بالشام.

وتحت عنوان (النفوذ الفاطمي في الأوج) كتب المؤرخ العربي المسيحي الدكتور فيليب حتى: «في خلال حكم الإمام العزيز، وصلت الدولة الفاطمية إلى أوجها، وكان اسم الخليفة يذكر في خطب الجمعة في جميع المساجد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق، بل في ذات مرة في الموصل، وقد وصلت الخلافة الفاطمية في عهده إلى حد أنها كيفت نفوذها وظفرت بأن تصبح الدولة الإسلامية الوحيدة ذات النفوذ العظيم في شرقي البحر المتوسط». وأشاد المستشرق البريطاني ستانلي لينبول بعصر الإمام العزيز فقال: «كان الإمام العزيز يشبه أباه في حبه للسياسية وإدارة شؤون البلاد، واشتهر بالمقدرة السياسية والإدارية، وشيد العزيز أسطولاً ليحارب الإمبراطورية البيزنطية، كما أنه قاد بنفسه حملة عسكرية موفقة إلى الشام وكان عهده عهد سلام دائم في مصر، وكان اسمه يذكر في صلاة الجمعة في المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلسي كما أنه كان يقف أمام الناس في الجامع الأزهر كرئيس ديني ودينيوي».

وإلى جانب سياسة التسامح الديني الذي انتهجها الإمام العزيز نرى تسامحاً عنصرياً، فلم يفرق الإمام في المعاملة بين العناصر المختلفة التي كانت تقيم في مصر وفي سائر أقاليم الدولة الفاطمية، بل عمل على حفظ التوازن بينها وجنبها الصراع العنصري أو الطبقي، حتى تعيش هذه العناصر كلها في مجتمع واحد متماسك.

وكانت وفاة الإمام العزيز بالله في مدينة بلبيس في ٢٨ رمضان سنة ٣٦٨هـ وكان قد خرج على رأس الجيش الفاطمي لقتال القرامطة، وهو في الرابعة والأربعين من عمره فخلفه ابنه أبو علي المنصور الذي تلقب بالإمام الحاكم بأمر الله.

وكان مولد الإمام الحاكم يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ وتولى الخلافة في رمضان ٣٨٦هـ وله إحدى عشر سنة ونصف سنة وتولى الوصاية عليه مربية برجوان الخادم.

والإمام الحاكم من الشخصيات التي ظلمها بعض المؤرخين، فقد حاولوا الإساءة إليه ونسبوا إليه الكثير من التصرفات فظلموه بذلك ظلماً فادحاً، وإذا أراد المؤرخ المنصف المحايد إصدار حكم تاريخي عادل، فمن واجبه أن يدرس الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المحيطة بالشخصية التاريخية التي يحكم لها أو عليها، حتى يكون حكمه بعد ذلك حكماً منصفاً واقعياً. تحدث المؤرخون الظالمون عن قرارات أصدرها الإمام الحاكم، ووصفوها بأنها (شاذة)!! فتحدثوا عن قراراته نحو منع النساء من مغادرة منازلهم، ومنع زراعة العنب، وغير ذلك ولم يكلفوا أنفسهم مثونة البحث عن الحقيقة.

وفي الحقيقة، تمتعت مصر في عهد الإمام الحاكم برخاء اقتصادي أدى على ترف ورفاهية، وبالتالي إلى نوع من الفوضى الاجتماعية والخلقية، ورأى الإمام الحاكم بوازع من دينه وغيرته على الفضائل أن يقضي على هذه الفوضى ويقر الآداب الاجتماعية، فمنع النساء من السير

خلف الجنازات، كما منعهم من الخروج إلى الحمامات والأسواق والتطلع من النوافذ، حتى إذا لم تستجب النساء لهذه الأوامر التي تحمي الآداب، أمر الحاكم صانعي الأحذية بعدم صنع أحذية النساء، وكان هدف الإمام من ذلك منع النساء من الاختلاط بالرجال لوضع حد للفوضى الأخلاقية والاجتماعية.

وأدى الرخاء المادي إلى إقبال بعض الناس على شرب الخمر، ورأى الإمام الحاكم أن يضع حداً لذلك، فالحمر رجس من عمل الشيطان، ومرض اجتماعي يجب محاربته، فمنع الإمام استيراد الزبيب أو بيعه، ثم أمر بالآلا يشتري كل فرد أكثر من أربعة أرطال عنب في كل مرة، كما أمر بإتلاف أشجار الكروم، وبعض الدول العربية تمنع اليوم بيع الخمر على وجه الإطلاق، وتعاقب المخالفين عقاباً صارماً.

كما أن الولايات المتحدة الأمريكية، وهي دولة غير إسلامية، منعت بيع الخمر في فترة من الفترات أفلا يستحق الإمام الحاكم الشكر والثناء لمنعه شرب الخمر بدلاً من همزات ولزات المؤرخين المغرضين!!

فسر بعض المؤرخين المحضين بعض قوانين الإمام الحاكم مغرضاً ولكننا نخالفهم في ذلك تماماً، فقد أمر الإمام الحاكم ألا يصطاد سمكاً بغير قشور، حرصاً على الثروة السمكية في البلاد، وهو ما تفعله الدول المعاصرة الآن حين تحدد سعة شباك الصيد حتى لا يصطاد الصيادون الأسماك الصغيرة، كما منع الإمام الحاكم ذبح البقر إلا في عيد الأضحى، مدفوعاً برغبته في تنمية الثروة الحيوانية، وفعل الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الأموي بالعراق مثل هذا فلم ينتقده المؤرخون.

كما تلجأ بعض الحكومات الحديثة في العالم خلال الأزمات الاقتصادية على تحديد ذبح الحيوانات، أو منع ذبح الإناث، أو تحديد أيام بيع اللحوم، وغير ذلك من القوانين الحكيمة التي تفرضها المصلحة العامة، كما منع الإمام الحاكم تخزين ما يفيض عن حاجة كل فرد من المواد التموينية، وحدد أسعار المواد الغذائية والاستهلاكية، وجعل القتل عقوبة المخالفين، وهو بذلك يحافظ على أقوات الشعب، كما منع الإمام عجن الخبز بالأرجل تحقيقاً لنظافة الغذاء الرئيسي للشعب.

مال الإمام الحاكم إلى التقشف والزهد في حياته العامة والخاصة، ومنع الناس من ذكر عبارة (سيدنا ومولانا) في المكاتبات الواردة إليه، واختار أن يلقبوه بأمر المؤمنين، كما أصدر أوامره بالآلا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل يده عند السلام عليه في المواقب، كما أمر بالآلا يصلي عليه أحد في الخطب الدينية والمكاتبات والمحادثات الرسمية، ومنع الإمام ضرب الطبول والأبواق حول القصر الفاطمي، ونهى عن إقامة الزينات في طريقه إلى المصلى الذي أقامه بحبل المقطم، وصار يخرج للصلاة في أبسط المظاهر واهتم الإمام الحاكم بتنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة، وطارد العابثين بالأمن، وكان الإمام زاهداً في أموال الدولة برغم ما تكسده لديه من الأموال

والتحف، وبلغ من تعففه أنه إذا كثرت أملاك أحد رجاله، أضافها إلى خزائن الدولة. وقد أنصف الإمام الحاكم كثير من المؤرخين المحدثين، نذكر منهم الدكتور جمال سرور في كتابه (مصر عصر الدولة الفاطمية) والدكتور عبد المنعم ماجد في كتابه (الحاكم بأمر الله- الخليفة المفترى عليه).

ثم تولى الإمامة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله في شهر شوال سنة ٤١١هـ، وكان في السادسة عشر من عمره، فتولت عمته ست الملك الوصاية عليه، وأثبتت كفاءة ممتازة في تصريف شؤون الدولة، ورضيت الطوائف جميعها عن سياستها، وظلت صاحبة السلطة إلى أن توفت سنة ٤١٥هـ، فتولى الوزارة نجيب الدرة علي بن الجرجرائي، وتولى الكتابة أبو عبد الله القضاعي، وتعاونوا على إدارة شؤون البلاد بأمانة وكفاءة.

اتبع الإمام الظاهر سياسة التسامح مع أهل الذمة (الكتابيين) فأصدر بياناً أعلن فيه أنهم أحرار في عقائدهم وشعائهم، وأنه لا إكراه في الدين، ورحب بمن يريد منهم اعتناق الإسلام، وأطلق الحرية الدينية لم أراد الاحتفاظ بعقيدته.

واهتم الإمام الظاهر برخاء البلاد الاقتصادي، فاعتنى بالزراعة باعتبارها المورد الرئيسي للأهالي وللدولة على السواء، كما عمل على حماية الثروة الحيوانية فأصدر قانوناً يمنع ذبح البقر، وأباح ذبح الحيوانات الأخرى التي لا تصلح لحرق الأرض، فقد انتشر وباء أصاب الماشية التي يعتمد الفلاحون عليها في فلاحه أراضيهم، واهتم الإمام الظاهر أيضاً بتوطيد الأمن والسلام في ربوع البلاد ومن منشأته منظرة اللؤلؤ بالقرب من القصر الغربي الصغير.

وتولى أبو تميم محمد بن الظاهر الإمامة في شعبان سنة ٤٢٧هـ وتلقب بالإمام المستنصر بالله وكان في السابعة من عمره وحكم ستين سنة وأربعة أشهر، تخللتها فترات من الاستقرار والرخاء، وفترات من الأزمات الاقتصادية نتيجة انخفاض النيل.

وفي الفترة الأولى من حكم الإمام المستنصر، امتد سلطان الفاطميين على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقية، وكان اسم الإمام يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، وكذا في صقلية واليمن والحجاز والموصل بل في بغداد العاصمة العباسية لمدة عام.

أما الفترة الثانية من عهد الإمام المستنصر، فقد لازم سوء الحظ خلالها القطر المصري، نتيجة نقص مياه فيضان النيل مما أدى إلى أزمات اقتصادية شديدة ترتب عليها نقص شديد في المواد الغذائية، وعادة في كل زمان ومكان تصاحب الأزمات الاقتصادية اضطرابات في الأمن وصراعات اجتماعية، وسارع المستنصر إلى حل المشكلات الكبيرة المترتبة على هذه الأزمة الاقتصادية ورأى أن يعهد بحلها إلى كفاءة كبيرة فاختار بدر الجمالي والي عكا بالشام الذي اشتهر بالعدل والحزم والعبقرية، وفوضه شؤون الدولة لإنقاذها من مشاكلها الداخلية، وكان بدر الجمالي عند حسن ظن الإمام به، فنجح في توطيد الأمن واهتم بشؤون الزراعة مما أدى إلى توفير المحاصيل

وانخفاض الأسعار كما اهتم بدر الجمالي بتحسين القاهرة، فأحاطها بسور، كما جدد أبواب النصر وزويلة والفتوح، وبنى جامع الجيوشي فوق جبل المقطم.

ثم تولى الإمامة في ١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ الإمام المستعلي لله، فواجه في أول عهده ثورة أخيه نزار عليه، الذي اتخذ الاسكندرية مركزاً لثورته، ولكن الإمام المستعلي نجح في إخماد الثورة، واستمر الحسن الصباح يدعو لنزار في إيران، وبذلك انقسمت الدعوة الفاطمية إلى مستعلية ونزارية.

عاد الحسن بن الصباح إلى خراسان داعياً إلى مبادئ طائفة النزارية ونشرها بين الخراسانيين، واستولى على عدد كبير من القلاع حول بحر قزوين وأقام الحسن في قلعة الموت، وكان يسيطر على أصحابه باستعمال المخدرات، فكان ينقلهم بعد تخديرهم إلى حدائق غناء ويزعم لهم أنه نقلهم إلى الجنة وكان يطلق على النزارية اسم (الباطنية) أيضاً فقد كان قوام إدعائهم علم الباطن.

وفي عهد الإمام المستعلي بدأت فترة حاسمة في تاريخ العالم الإسلامي فقد بدأت الحملات الصليبية على بلاد الشام، وقاد الإمام جيشاً من عشرين ألف جندي، ولكن مواجهة الصليبيين كان يحتاج تكاتف جميع الدول الإسلامية ولك تهتم الدولة العباسية بالوقوف في وجه هذه الإغارات الصليبية.

توفي الإمام المستعلي فخلفه ابنه الإمام الأمر بأحكام الله في ٩ صفر ٤٩٥هـ وكان في الخامسة من عمره حينئذ، فسيطر الوزير الأفضل على الدولة، وما لبث أن تخلى عن إخلاصه وولائه للإمام، بل تجرأ فألقى الاحتفال بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام ومولد ابنته السيدة فاطمة الزهراء ومولد الإمام علي بن أبي طالب ومولد الإمام الفاطمي، وأغلق دار العلم التي أنشأها الإمام الحاكم ولكن الله عز وجل نصر الإمام الأمر، وحين بلغ سن الرشد نجح في استرداد سلطته السلوية وتخلص من وزيره الأفضل سنة ٥١٥هـ، ولكن سرعان ما واجه الإمام مشكلة أخرى حين تولى الوزارة أبو علي بن الأفضل سنة ٥٢٤هـ الذي دفعه طموحه وطمعه إلى طريق الخيانة، كما سنرى.

يمتدح المؤرخون أخلاق الإمام الأمر وسياسته، فقد أحسن معاملة أهل الذمة، واهتم بتشجيع الشعراء فظهرتن نهضة أدبية، كما قام بكثير من الإصلاحات فجدد قصر القرافة، وبنى قصر الهودج في جزيرة الروضة وأنشأ مجمع الأقرم.

رزق الأمام الأمر بغلام في ربيع الأول ٥٢٤هـ سماه أبا القاسم الطيب وأعلن توليته عهده واستشهد الإمام الأمر في ١٤ من ذي العقدة من نفس السنة على يد الخونة من النزارية وبمعاونة ابن الأفضل، واختار بعض قادة الجيش الأمير أبا ميمون عبد المجيد ابن عم الأمر ليتولى الخلافة، فأخفى أمر الإمام الطيب عن رعاياه، وتلقب بالحافظ لدين الله، وأقيم كفيلاً لحمل منتظر لأن الإمام الأمر حين ترك إحدى زوجاته حاملاً، وما لبث أن وضعت بنتاً.

وهكذا تولى الحافظ الخلافة بهذه الطريقة الشاذة ولا تجوز انتقال الإمامة إلى ابن العم، ولذا لم تستقر له الأمور، فقد قامت الدعوة للإمام الطيب ابن الإمام الأمر، ونقشت الدنانير باسمه في سنة ٥٢٥هـ، واتخذ أنصاره مدينة الاسكندرية مركزاً للدعوة له. وخلعت بلاد اليمن طاعتها، فقد رأت الملكة الحرة الصليحية أروى أن الحافظ قد اغتصب الخلافة من الإمام الشرعي الطيب وأنه لا حق للحافظ في إمامة الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، ودخلت الدعوة الفاطمية في دور جديد، فقد انتقلت إلى بلاد اليمن، كما سنرى في الفصل التاسع من هذا الكتاب.



فلسفة الحضارة الفاطمية

كانت الدولة الفاطمية نظاماً حضارياً إلى جانب كونها نظامي ديني سياسي فكانت تنتهج في ذلك منهج الإسلام، فهو ليس عبادات فحسب، بل يمنح البشرية نظاماً مثالية راقية في السياسة والاجتماع والفكر والاقتصاد، وهو حضارة عامة شاملة صالحة لكل زمان ومكان. ولما كان الإسلام ديناً عالمياً، وهو الدين الذي ارتضاه الخالق العظيم للبشرية جمعاء حتى يوم القيامة، فإن كلاً من دولته وحضارته لها الطابع العالمي أيضاً، وقد عملت الدولة الفاطمية على أن تكون هي دولة الإسلام التي تحمل لواء الحضارة الإسلامية الزاهرة، ولذا نرى الإمام المهدي بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب مباشرة يعمل على امتداد دولته شرقاً وغرباً، وحاول فتح مصر.

ثم نجح الإمام المعز لدين الله في فتح مصر والشام وامتد نفوذه إلى الحجاز واليمن، وأصبحت الدولة الفاطمية إمبراطورية عالمية تسيطر على البحرين الأبيض والأحمر، كما سيطر الفاطميون على جزيرة صقلية، وبعث الإمام العزيز أساطيله لغزو أراضي الدولة البيزنطية، ونشد مدن إيطاليا صداقة الدولة الفاطمية وبذلك أصبح لهذه الدولة الطابع العالمي. وشملت أراضي الدولة الفاطمية كثيراً من الشعوب والثقافات والحضارة، عاشت دهوراً في عزلة، ولكن دخولها في لواء الفاطميين، أتاح لها الفرصة للامتزاج ثم الاندماج، فكانت الدولة الفاطمية هي البوتقة التي انصهرت فيها الفروق التي كانت تفصل بين هذه الشعوب ذات الحضارة المتباينة.

وامتزجت هذه الحضارات والثقافات لتكون مزيجاً قوياً يمثل الوحدة الحضارية الإسلامية، وأدت مساواة الأئمة الفاطميين ووقوفهم موقف الحياد من حضاراتهم إلى تيسير الامتزاج الحضاري والفكري بين هذه الشعوب فقد قدم على الأئمة الفاطميين، من كل مكان ومن كل الشعوب، والعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء فكانوا كلهم يلقون الترحيب والتشجيع، كما ضمت مكتبات القصور الفاطمية آلاف الكتب التي تمثل الفكر العالمي وخلاصة التراث البشري. والدولة الفاطمية دولة أخلاقية، تنشر الفضائل، وتدعم الأخلاق، وتبني النفوس، وقد مر

بنا ذكر (المجتمع الفاضل الذي أنشأه أبو عبد الله الشيعي في (دار الهجرة) بالمغرب، وقد ضرب الأئمة الفاطميون الأمثلة العليا في الخلق القويمة، وأصبحوا بذلك القدوة الطيبة لرعاياهم فقد اشتهروا جميعاً بالجد في بلاطهم، والمحافظة على شعائر الإسلام والسجيا الحميدة، وإنما الأمم ما الأخلاق بقيت، ولذلك استمرت الدعوة الفاطمية حتى اليوم، لأنها تقوم على الفضائل الأخلاقية وقد نجح الفاطميون في إنشاء (المجتمع الفاضل) الذي أمل الفلاسفة القدماء في وجوده يوماً ما .

وهذه هي صورة أخلاقية رائعة يرسمها الإمام المعز حيث قال: (طلبت الرفعة وجدتها في التواضع، وطلبت المودة وجدتها في الصدق وطلبت الرياسة وجدتها في العلم، وطلبت الكرامة وجدتها في التقوى، وطلبت النصرة وجدتها في الصبر وطلبت العبادة وجدتها في الورع، وطلبت الغنى وجدته في القناعة، وطلبت الشكر وجدته في الرضا، وطلبت الراحة وجدتها في ترك الحسد، وطلبت ترك الغيبة وجدته في الخلوات، وطلبت الملك وجدته في الزهد، وطلبت العافية وجدتها في الصمت، وطلبت الأُنس وجدته في ترتيل القرآن، وطلبت قتل الحيران وجدته في ذكر الله، وطلبت البر وجدته في الأُنفس السخية، وطلبت رحمته يمن علينا بها).

والدولة الفاطمية دولة شعبية، تقوم على أسس رعاية الشعب والعناية بالجماهير العريضة، والاهتمام بالقاعدة الشعبية، وتوفير الحياة الكريمة لرجل الشارع، فلم تكن الدولة الفاطمية كغيرها من الدولة الإسلامية دولة أرستقراطية تقوم على نظام طبقي وتقر الخلافات والفواصل الطبقيّة، وشارك الأئمة الفاطميون شعبهم ورعاياهم في جميع أفراحهم وأتراحهم، وفي أعيادهم، وفي مناسباتهم القومية، والدينية وعاش الأئمة مع الشعب مشكلاته، وجهدوا في توفير مصالحه ورفاهيته.

ويحفظ التاريخ لنا صوراً كثيرة تصور رغبة الإمام المعز في إسعاد شعبه، فقد اشتهر بالعطف على رعاياه، يشفق على فقرائهم ويساعدهم على تزويج بناتهم وكثيراً ما كان يبني الدور للفقراء، وإليك -أيها القارئ الكريم صورة حية واقعية من تاريخ الإمام المعز.

احتفل الإمام المعز لدين الله بختان ابنه العزيز (نزار) وأخويه عبد الله وعقيل في سنة ٣٥١هـ في حفل بهيج لم تشهده الدولة الفاطمية من قبل، ورأى أن يشرك رعيته معه في الاحتفال، فطلب من الأهالي تقديم ابنائهم ليختتنوا ويأخذوا من مال الدولة قدراً من المال، وبعث المعز إلى ولاته في سائر المدن يأمرهم بمثل ما أمر به أهالي العاصمة المنصورة وأرسلت الحكومة الأموال إلى الولايات المختلفة ليقوم الولاة بدفع النفقات والهدايا والمنح لأبناء الصغار المختتنين وإذا علمنا أن الإمام المعز كان يعطي كلاً من هؤلاء الأطفال كسوة حسنة بعد اختتانه، ويمنحه مبلغاً من المال يتراوح بين مائة وخمسين درهماً ومائتي درهم، اتضح لنا مقدراً الأموال التي بذلها الإمام المعز في عاصمته وفي سائر الولايات.

وضع الإمام المعز لدين الله أسس السياسة الرشيدة التي سار عليها خلفاؤه من الأئمة، فقد

حدد واجبات الإمام بحيث تدور كلها حول محور واحد هو إصلاح أمر الرعية وحمايتهم من أعدائهم، فقال رضي الله عنه: (لنناس شغل بدياهم وما يتلذذون به منها، وشغلنا إقامة أودهم وصلاح أحوالهم، والنظر فيما يعود عليهم ويحامي حماهم، ويدفعهم عن بيبضتهم، ويحقن دماءهم، ويحصن حريمهم وأموالهم، ويكف أيدي المتطاولين، بذلك نقطع ليلنا ونهارنا.. والله المستعان على ما قلناه من أمورهم وافترضه علينا من القيام بأسبابهم ونرغب إليه في إصلاحهم وهدايتهم إلى ما فيه حظهم في دنياهم وآخرتهم).

وأعلن الإمام العزيز بالله أنه يهدف دائماً إلى رخاء الشعب وعلى رفع مستوى معيشتهم، فوجه حديثه إلى عمه حيدره فقال: (يا عم، أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار).

وأصبحت قصور الأئمة الفاطميين ووزرائهم مراكز شعبية، وفتحت أبواب هذه القصور أمام الجماهير وأبناء الشعب فكانوا يترددون على المكتبات الحافلة بألاف الكتب النفيسة للقراءة والاستزادة من العلم، كما ترددوا أيضاً على المستشفيات التي أنشأها الأئمة والوزراء في قصورهم لعلاج المرضى من أبناء الشعب، وقدمت أيضاً آلاف الجماهير في الأعياد والمواسم والمناسبات إلى هذه القصور الولائم الفاخرة التي أقامها الأئمة للشعب، حيث مدوا الأسمطة الحافلة وكانت قاعة الذهب في القصر الشرقي الكبير تشهد هذه الأسمطة طوال شهر رمضان وأيام العيدين وكان الأئمة الفاطميون ينفقون الأموال الطائلة مما يدل على ثراء الدولة الفاطمية.

وفي عيد مولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان الإمام الفاطمي يأمر بصنع أكثر من عشرين قنطاراً من الحلوى توزع على ثلثمائة خوان وتوزع في الجامع الأزهر وفي الاحتفال بجبر الخليج (وفاء النيل) يقام سماط عظيم في سرداق كبير على شاطئ النيل قرب منظر السكرة التي كان الإمام يجلس فيها ويدعو الناس إلى هذا السماط.

وفي عيد الأضحى كان الإمام الفاطمي بعد أن ينتهي من صلاة العيد يركب إلى المذبح حيث يكون الوزير وقاضي القضاة وغيرهم من رجالات الدولة في انتظار وصوله ويقوم الإمام بذبح الأضحيات وتوزيع لحومها على الفقراء، ويتكرر ذلك في اليومين الثاني والثالث من أيام عيد الأضحى.

وأنشأ الأئمة الفاطميون (دار الطراز) حيث تفصل فيها كسوة الشتاء والصيف لرجال القصر ونسائهم وأولادهم وخدمهم، وكما تصنع فيها خلع الأمراء والوزراء وكبار الموظفين، من الثياب والعمائم المذهبة، وتصنع بها أيضاً الثياب الحريرية التي يخلعها الإمام على موظفي الدولة في الأعياد والمواسم.

وحرص الأئمة الفاطميون على أن تكون أيام الشعب المصري كلها أعياداً يشعرون فيها بالبهجة والسعادة، ولذا كانت الدولة الفاطمية أكثر الدول الإسلامية احتفالاً بالأعياد الدينية والقومية والشعبية، فكانت تعطل فيها دواوين الحكومة وتحفل الدولة بها احتفالاً رسمياً وحرص الإمام

الفاطمي على الاحتفال بمختلف الأعياد والمواسم في صورة اجتماعية بهيجة، فيقيم الولائم الضخمة والأسمطة الكبيرة في قصور الخلافة وفي المساجد.

واهتم الأئمة الفاطميون بالحالة الصحية للشعب المصري، فأنشأوا المستشفيات واعتنوا بالدراسة الطبية وتشجيع الأطباء في النهضة بعلم الطب، وأصبح بلاط الأئمة يضم عدداً من الأطباء الذين شجعهم الأئمة بالأموال الطائلة على العناية بدراسة الطب، حتى أصبحت (المارستانات) أي المستشفيات بمثابة كليات للطب، ولذا حفل العصر الفاطمي بتأليف العديد من كتب الطب وسار الوزراء الفاطميون على نهج أئمتهم، فقد أنشأ الوزير الفاطمي الأجل يعقوب بن كلس في قصره مستشفى زوده بعدد كبير من الأطباء يفحصون المرضى ويصرفون لهم الدواء بدون مقابل.

وإذا كانت الثورة الفرنسية تفخر بأنها رفعت شعار (الحرية والإخاء والمساواة) فقد حققت الدولة الفاطمية هذا الشعار عملياً وإيجابياً قبل الثورة الفرنسية بعدة قرون فقد أطلقت الحرية الدينية والمذهبية، كما حققت الإخاء والمساواة بين جميع العناصر الجنسية التي تألفت منها الدولة. وقد أصبح العهد الذي أصدره جوهر الصقلي بتوجيه من الإمام المعز لدين الله هو دستور الحكم والمعاملة الاجتماعية في الدولة الفاطمية طوال عصرها الزاهر.

أعلن جوهر أن الإمام المعز حريص على: نشر العدل ويسط الحق، وحسن الظلم وقطع العدوان، ونفي الأذى، ورفع المؤن، والقيام في الحق، وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان، وجميل النظر وكرم الصحبة، ولطف العشرة، واقتناء الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرف في أوان ابتغاء معاشهم، حتى لا تجري أمورهم إلا ما لم شعئهم وأقام أودهم وجمع قلوبهم، وألف كلمتهم...

وأعلن جوهر أيضاً الحرية المذهبية لأصحاب المذاهب المختلفة، فكتب في عهده: (...الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجزي الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد على أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في سنته).

وكان المجتمع المصري يضم أعداداً من المسيحيين واليهود، أعلن جوهر أنهم في ذمة الفاطميين، وأنهم يطلقون لهم الحرية الدينية، ويتعهدون لهم بالأمان والضمان، فكتب في عهده: (وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه، ولكن على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهاليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم...).

امتدح المستشرق (ستانلي لينبول) تسامح الأئمة الفاطميين مع أهل الذمة فقال: بوصول الخلفاء

الفاطميين إلى مصر، بدأت فترة من التسامح الديني لا عهد لأهل الذمة بها، فقد كان الخلفاء الفاطميون يرعون على الدوام رعايتهم المسيحيين وكثيراً ما بينت أو أصلحت الكنائس في عهدهم. وطبق الأئمة الفاطميون سياسة التسامح مع أهل الذمة عملياً وإيجابياً، فقد تولى المسيحيون واليهود والمناصب الحكومية ووصل بعضهم إلى الوزارة وأقبل كثير منهم على دراسة المذهب الإسماعيلي، ونتج عن إعجابهم به اعتناقهم الإسلام وخير مثال لذلك الوزير الأجل يعقوب بن كلس.

كان المذهب الإسماعيلي هو الأساس الذي قامت الدولة الفاطمية عليه ولذا عمل الأئمة الفاطميون على نشر مذهبهم بين المصريين، بالإقناع وبالوسائل العلمية فالمذاهب الدينية لا يمكن أبداً أن تفرض بالقوة أو بحد السيف، وقد أقبل كثير من المصريين على اعتناق المذهب الإسماعيلي، وقد أطلق الإمامان المعز والعزیز الحرية المذهبية لأهل السنة، فكانت تعاليم الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام ابن حنبل تدرس في مصر طوال عهديهما، وكان علماء السنة يلقون دروسهم على الناس في جامع عمرو بن العاص.

واتبع الأئمة الفاطميون أيضاً سياسة التسامح العنصري، فقد كانت الدولة الفاطمية تضم كثيراً من العناصر الجنسية، ولما كان الإسلام ينهى دائماً عن أي لون من ألوان العصبية الجنسية أو التفرقة العنصرية، فقد اتبع الأئمة الفاطميون سياسة المساواة بين هذه العناصر المختلفة وحفظوا التوازن بينها حتى لا يثور بينها صراع عنصري.

وكانت الدولة الفاطمية هي (دولة العلم والإيمان)، ولا تقوم دولة في أي عصر إلا على هذين الأساسين الوطيدتين، ولما كان الأئمة الفاطميون وارثين لعلوم الأنبياء وعلى جانب كبير من العلم والثقافة، فقد اهتموا دائماً بالنهضة العلمية والفكرية، وزخر بلاط الأئمة بالعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم وفتح الأئمة أبواب قصورهم للعلماء والطلاب، وعقدوا الكثير من المجالس العلمية والأدبية والمناظرات، ودعوا إليها الفقهاء والعلماء والأدباء، مما أدى إلى نهضة ثقافية حقيقية.

تطور الجامع الأزهر في عهد الإمام العزيز بالله تطوراً كبيراً، فأصبح جامعة يتلقى فيها الطلاب العلم، وقدم عليه رواد الثقافة من كل أرجاء العالم ينشدون المعرفة وتعلم العلوم الدينية والعقلية، وعمل الإمام العزيز على جذب هؤلاء الطلاب من كل مكان في العالم الإسلامي بما كان يقدمه إليهم من مسكن ومأكل ووسائل الحياة والراحة، وأقام الإمام مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع كما حبس على الجامع الأزهر كثيراً من الأوقاف، غير الهدايا القيمة من وقت لآخر واهتم العزيز أيضاً بإقامة الصلوات بالجامع الأزهر في أيام الجمعة والأعياد وكان كثيراً ما يؤم بنفسه المسلمين في الصلاة ويخطب فيهم، كما شهد الجامع الأزهر كثيراً من الاحتفالات الدينية طوال العصر الفاطمي.

علّق المستشرق البريطاني (ستانلي لينبول) على تطوير الجامع الأزهر حتى أصبح جامعة

كبرى، فقال: وفي عام ٩٨٨م ومنذ ذلك الحين صار ذلك الجامع أبرز الجامعات الإسلامية كافة يجتمع فيه في عدد وفير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي، من ساحل الذهب حتى ولايات الملايو، ولكل شعب رواق خاص به، ويتلقى الطلاب على أيدي الشيوخ دروساً في مختلف فروع الثقافة العربية، مثل القرآن والحديث والتفسير والفقه والقواعد وعلم العروض والمنطق والبلاغة والجبر وما إلى ذلك ويتعلم الطلبة بالمجان ويعطون قدراً من الطعام ينفق عليهم من أوقات بيت المال.

وحذا الوزراء الفاطميون حذو أئمتهم، فقد أصبحت قصورهم مراكز للثقافة وطلب العلم، وقصر الوزير يعقوب بن كلس خير مثال لقصور الوزراء الفاطميون فقد عقد ابن كلس في قصره كثيراً من الاجتماعات والندوات والمناظرات العلمية والفقهية وشهدتها الفقهاء والعلماء والقضاة والنحاة وعلماء الحديث وأساتذة القراءات، فضلاً عن كبار رجال الدولة، وتنتهي هذه الاجتماعات بالاستماع إلى قصائد الشعراء الذين تباروا في الإجابة، وبين جنبات القصر ينتشر الكتاب الذين ينسخون القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب والعلوم المختلفة، وحرص ابن كلس على إقامة الصلاة في مسجد القصر، وخصص جماعة من القراء والأئمة، وكان ابن كلس من العلماء البارزين ووضع كثيراً من الكتب والرسائل، ألقى بعضها على مسامع المسلمين في الجامع الأزهر، كما أسس ابن كلس مجمعاً علمياً كان ينفق عليه ألف دينار شهرياً.

واهتم الأئمة الفاطميون بالمكتبات، وأصبحت مكتبة القصر الفاطمي أعظم المكتبات في العالم الإسلامي قاطبة، فكان القصر الشرقي مكتبة تحفل بألاف الكتب وقد حمل الإمام المعز لدين الله معه عند قدومه إلى مصر من بلاد المغرب عدداً كبيراً من الكتب أصبحت نواة مكتبة القصر، ثم عمل الإمام العزيز بالله على تنميتها، وقام وزيره يعقوب بن كلس بدور كبير في تطوير هذه المكتبة.

وشجع الإمام العزيز بالله تجار الكتب على جلب الكتب النادرة ليضمونها إلى مكتبة القصر، وقد روى المؤرخ المقرئ أن رجلاً قدم على الإمام العزيز بنسخة من كتاب الطبري فاشتراها منه بمائة دينار، وكان بمكتبة الإمام العزيز أكثر من عشرين نسخة من هذا الكتاب منها نسخة بخط يده، وكان الإمام يتردد كثيراً على المكتبة ليتفقدوها ويرى ما أضيف إليها من كتب جديدة، وليشير على أمناء المكتبة بما يقترح شراؤه من كتب أو ليختار بعض الكتب التي يود قراءتها في مجالسه الخاصة.

وفي سنة ٣٩٥هـ أنشأ الإمام الحاكم (دار الحكمة)، التي ضمنت مركزاً للدراسات النقلية والعقلية، وكانت مكتبة بدار العلم متصلة دار الحكمة وتضم آلافاً من المؤلفات القيمة، ويتوفر عليها جهاز كبير من العلماء والنساخ والموظفين، ويتردد عليها أبناء الشعب للقراءة، فتمدهم المكتبة بحاجتهم من الأوراق والأقلام والمداد وأصبحت دار الحكمة أشهر أكاديميات العالم الإسلامي. والعصر الفاطمي هو عصر الإنشاء والعمران، وشهد هذا العصر الزاهر إنشاء كثير من المدن،

فقد أنشأ الإمام المهدي مدينة المهدية ومدينة زويلة، كما أسس الإمام المنصور مدينة المنصورة سنة ٣٢٧هـ ثم كان إنشاء القاهرة في مصر التي أصبحت في مقدمة مدن العالم الإسلامي، وهو عمل إنشائي وحضاري يحق للمسلمين جميعاً أن يفخروا به على مر العصور، وقد كان بناء عاصمة كبرى للدولة الفاطمية وإنشاء حاضرة إسلامية عظيمة، سياسة مقررة وضعها الأئمة الفاطميون ونفذها الإمام المعز لدين الله، وقد أمر الإمام القائد جوهر الصقلي بتشييد هذه المدينة في الخطبة التي وجهها وهو في وداع الجيش الفاطمي عند خروجه لفتح مصر، ولذلك نجد جوهر يضع أسس القاهرة في نفس الليلة التي دخل فيها الفسطاط العاصمة القديمة لمصر، في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ واهتم الأئمة الفاطميون على التوالي بتطوير وتعمير القاهرة حتى أصبحت أعظم المدن الإسلامية فقاموا بإنشاء الجوامع والمساجد، والقصور والفنادق، والحمامات، ودور العلم.

والعصر الفاطمي أيضاً هو عصر الرخاء الاقتصادي، فقد اهتم الأئمة الفاطميون بتنمية موارد البلاد وإصلاح المرافق العامة مما أشاد به المؤرخون الأقدمون والمحدثون فقد رسم المؤرخ المقرئزي صوراً كثيرة للرخاء في مصر في العصر الفاطمي والذي وفر للشعب المصري حياة الترف والرفاهية والاكتفاء المادي.

اهتم الأئمة الفاطميون بالزراعة، وبلغت مساحة الأرض المزروعة أكثر من ربع مليون فدان، كما اهتموا بالري وشق الترع، وبناء الجسور، وبلغ عدد الترع ١١٧ ترعة في الوجهين البحري والقبلي، كما اهتموا بمقاييس النيل وإنشاء مخازن الحبوب لتوفير أقوات الشعب، وشعر الفلاح المصري في العصر الفاطمي بالأمان والاطمئنان، فقد كانت هناك إدارة حكومية منظمة تشرف على شؤون الزراعة وتقوم بمشاريع الري وتنظم شؤون الضرائب وتحدد العلاقات بين ملاك الأراضي والمستأجرين من الفلاحين، ولم تترك الحكومة تقدير الخراج للمقطعين بل حددت مقداره.

ووضع الأئمة الفاطميون العهد الذي منحه جوهر للمصريين موضع التنفيذ، فقد أمنهم على أموالهم وضياعهم وعمل الفاطميون على تنمية الإنتاج الزراعي، وأعطوا بعض الأراضي المملوكة للدولة للفلاحين.

وتطورت الصناعة في العصر الفاطمي، نتيجة استقرار الأوضاع ووفرة الإنتاج الزراعي، كما أدت حياة الترف والرفاهية والرخاء التي سادت المجتمع المصري إلى تطور الصناعات، ولم تعد المصانع قادرة على مد الجيش والأسطول الفاطمي بالسلاح والعتاد والحربي فحسب، بل أنتجت المصانع كثيراً من المصنوعات الغالية والكمالية وأدوات الترف، إلى جانب المصنوعات الاستهلاكية الشعبية.

وازدهرت التجارة أيضاً وأصبحت الفسطاط من أبرز المراكز التجارية، كما أصبحت الإسكندرية ميناء للتجارة العالمية، واهتم الفاطميون بطرق المواصلات التجارية، وتطوير الموانئ ومراكز التجارة الداخلية والخارجية.

واحتلت التجارة الفاطمية المركز الأول في تجارة العالم وأصبحت الأسعار في الإسكندرية

مقياساً لأسعار السلع العالمية، واستردت الإسكندرية في العصر الفاطمي مركزها الدولي من جديد واتسع نطاق التجارة الخارجية الفاطمية مع الأقطار الآسيوية والأوروبية، وأصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية، وعقد الأئمة الفاطميون كثيراً من المعاهدات التجارية مع دول العالم. واهتمت الحكومة الفاطمية بتوفير وسائل الراحة والأمان للتجار الأجانب، فأقامت الوكالات التي تشبه الفنادق اليوم، كما اهتمت أيضاً بالأسواق وإقامة الحوانيت والمخازن والمساكن والخدمات وراقبت الحكومة الفاطمية العمليات التجارية وحددت الأسعار ومنعت الغش والتدليس وأمنت الطرق للقوافل.

وصف المؤرخ المسيحي المعاصر الدكتور فيليب حتي النهضة الحضارية في مصر في العصر الفاطمي فقال: إن العصر الفاطمي يعتبر بدءاً لعصر جديد في تاريخ البلاد، إذ لم تتمتع مصر بنفوذ كامل مملوء بالحيوية ومؤسس على قواعد دينية منذ أيام الفراعنة قبل ذلك الحكم الفاطمي.

أما الدولتان السابقتان الطولونية والإخشيدية، فلم يكن لهما سلطان قوي ولا ديني في البلاد، إذ كان ظهورهما ويقاؤهما راجعاً إلى القدرة الحربية لئن أسسهما من رجال الحرب، كما كان راجعاً إلى الحالة السيئة التي كانت عليها الحكومة العباسية.

وتحدث المستشرق (ستانلي لينبول) عن الدور الحضاري للدولة الفاطمية فقال: (إنه بفضل التسامح السياسي والديني لفاتح مصر، رحب المصريون بالنظام الجديد، وأصبحت القاهرة عاصمة إمبراطورية البحر المتوسط، وانتصر النظام الفاطمي على النظام السني المتداعي، مما كان له أثر بعيد في مضمار السياسة والحضارة وقد كان لقوة الفاطميين البحرية واتصالاتهم بدول أوروبا أثره في إيجاد عنصر جديد في السياسة الخارجية وتنشيط التجارة، وتغيير حضارة مصر والشانم من نواح كثيرة مختلفة.

..وهكذا كانت الدولة الفاطمية دولة الرخاء والرفاهية.. دولة العلم والإيمان.. دولة الثقافة والحضارة.. دولة المجتمع الفاضل.. دولة البأس والمهابة.. دولة الحضارة والمدنية.. دولة العرب والعروبة.. ودولة الإسلام والمؤمنين.



عودة إلى الجهاد الدعوة الفاطمية في الدور اليمني

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وأصبح الإمام عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين سنة ٢٩٧هـ، وبدأت الدعوة الإسماعيلية تدخل في دور جديد متميز.

وقبيل وفاة منصور اليمن، استدعى ابنه أبا الحسن وتابعه عبد الله بن عباس الشاوري، وأشار عليهما بالاستمرار في الدعوة للمهدي وآل بيته، فقال: (فنحن غرس من غرسهم، ولولا

ناموسهم وما دعونا به إليهم ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه، ولا تم في الرئاسة محال) ثم أمرهما بمكاتبة الإمام حتى يختار أحدهما وأمر كل واحد منهما بمعاونة الآخر إذا وقع اختيار الإمام عليه.

ومات منصور اليمن وبدأت الأطماع في منصب (الداعي) فقد تنافس ابنه أبو الحسن والشاوري حول الفوز بالمنصب الجليل، وكان ابن حوشب يميل إلى تولية تلميذه الشاوري لخبرته ومراسه، بينما ظن أبو الحسن أنه يتولى المنصب وراثياً وكتب الشاوري إلى الإمام المهدي ينبئه بموت ابن حوشب ويسأله أن يعهد إليه بالدعوة، فأجابه إلى طلبه ورحل أبو الحسن إلى المغرب حيث التمس من المهدي أن يوليه الدعوة، ولكن المهدي كان قد عهد بها إلى الشاوري فعاد أبو الحسن إلى اليمن خائباً.

وثارت أحقاد أبو الحسن، وأعلن عداؤه سافراً للشاوري، وتدخل أخوه جعفر أبي حوشب ليثنيه عن هذا العدا، دون جدوى وتنكر أبو الحسن للدعوة الفاطمية ثم أقدم على قتل الشاوري وأعلن جعفر بن منصور اليمن براءته من فعل أخيه وخرج إلى القيروان ليعن ولاءه للمهدي، ولكنه وصل بعد وفاة الإمام المهدي وتولى ابنه الإمام القائم ٢٣٢هـ فعاش جعفر في ظل الإمام الجديد، ثم ارتفعت مكانته في عهد الإمام المعز لدين الله؟

وأصبحت الدعوة الفاطمية في محنة، نتيجة ما لحق بالإسماعيليين من إيذاء واضطهاد أبي الحسن، الذي أقدم على هدم جهود أبيه خلال سنوات طويلة وما لبث أن لقي أبو الحسن حتفه على يد بعض السنين الذي شكوا في إخلاصه للمذهب السني الذي أعلن تحوله إليه. انتقلت الدعوة الفاطمية بعد منصور اليمن إلى أفراد من غير أسرته، فتعاقب على شؤون الدعوة الإسماعيلية تسعة دعاة، وهي الفترة التي وقعت ما بين عهد منصور اليمن وظهور الصليحيين، وتعد هذه الفترة من الفترات الغامضة في تاريخ اليمن.

وكانت مهمة هؤلاء الدعاة الذين تولوا بعد موت ابن حوشب وقبل قيام الهدولة الصليحية، هي محاولة للخروج بالمذهب الإسماعيلي الفاطمي من النكسة التي أصابته ولذا واجهوا كثيراً من المصاعب والأعداء، وهي فترة محنة وشدة.

كان الداعي الثامن هو عامر بن عبد الله الرواحي الذي قام بالدعوة الفاطمية في اليمن في عهدي الإمامين الحاكم والظاهر، وقيل أنه أدرك عهد الإمام المستنصر بالله، وكان يقيم في حصن كوكبان، ونجح في انعاش الدعوة الفاطمية.

وقبيل وفاة الداعي الرواحي، عهد بالدعوة الفاطمية إلى علي بن الصليحي الذي اشتهر بالتفقه والتقوى، ونجح في اجتذاب قبيلة همدان لمناصريته، وعظم شأنه حتى أصبح أنصاره من أهل حراز وحدهم أربعون ألفاً، وحتى تنبأ الناس له أنه سيملك اليمن كلها له شأن ودولة.

كان علي الصليحي عالماً فقيهاً فيلسوفاً، يجد علم التأويل، وقد أدت معارفه إلى أن ينهج في

الدعوة نهجاً جديداً يخالف به من سبقه من الدعاة، فاتخذ ميدان الحج حقلاً لغرس مبادئه، وتنميتها، وصار يحج بالناس نحو خمس عشر سنة فذاع ذكره بين الناس.

استمد الصليحي القوة من عهد الإمام المستنصر بالله له بالدعوة، ومن تأييد قبيلة همدان القوية، ومن محبة عامة الناس له، وساعده هذا كله على الخلاص من (نجاح) الذي أقام دولة سنية في زبيد، خلقت دولة بني زياد بتأييد من الخليفة العباسي.

عادت للدعوة الفاطمية قوتها، وعزتها، كما كانت في عهد منصور اليماني، ونجح الصليحي بتأييد الإمام المستنصر في حكم بلاد اليمن باسمه، وتدل المراسلات بين الصليحي والإمام المستنصر على مدى اهتمام الإمام ببلاد اليمن وعلى تقديره للصليحي فقد بعث المستنصر إليه بالرايات ومنحه عدة ألقاب، وعقد له الولاية، وأذن له المستنصر بالقدوم عليه في مصر، وبينما هو في طريقه إلى مكة للحج، لقي حتفه على يد سعيد الأحول بن نجاح في ١١ ذي القعدة ٤٥٩هـ.

كان علي الصليحي قد اتخذ صنعاء، عاصمة للملكة وقد استخلف عليها ابنه المكرم حتى يعود من رحلته إلى مكة ثم مصر، وبعض المستنصر إلى المكرم يعزيه في وفاة أبيه ويعهد إليه بما كان أبوه يليه.

نجح علي الصليحي في جمع اليمن كله تحت لواء واحد، وهذا لم يحدث -كما قال عمارة اليمن- في جاهلية ولا في إسلام، ولذا كان تاريخه من أجل صفحات تاريخ اليمن، ولا عجب أن حزن الإمام المستنصر كثيراً لوفاته.

تولى المكرم بن علي الصليحي شؤون الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، وكان الإمام المستنصر منحه لقب (المكرم) في حياة أبيه سنة ٤٥٦هـ وجعله ولياً للعهد وواجه المكرم في أول عهده صعوبات شديدة نتيجة عداة بني نجاح الشديد له، كما أن بلاد اليمن لم تألف الخضوع لسلطان حكومة مركزية كالتي تمكن علي الصليحي من تأسيسها حين ضم بلاد اليمن كلها تحت لواء واحد فأصبح يسيطر على دولة قوية تمتد من الحجاز شمالاً إلى حضرموت جنوباً وأزال سلطان الحكام الإقليميين.

نجح المكرم في الحاق الهزيمة بسعيد الأحول من نجاح الذي سارع إلى الفرار ومد المكرم سلطانه إلى زبيد وولى عليها خاله أسعد بن شهاب وما لبث المكرم أن نجح في قتل ابن نجاح، وأطلق سراح أمه الأميرة أسماء بنت شهاب التي كانت أسيرة في أيدي بني نجاح، وكتب الإمام المستنصر رسالة إلى المكرم يهنئه فيها بالنصر والفوز.

ظهر اهتمام الإمام المستنصر ببلاد اليمن واضحاً وأبدى أمله أن يوطد المكرم دعائم الدعوة الفاطمية باليمن، ثم يمدّها إلى بلاد الحجاز، وكتب الإمام إلى المكرم رسالة يشيد فيها بجهود الوزير الجمالي في تحسين أحوال مصر.

استقر المكرم في عاصمته صنعاء بعد أن عاد الهدوء إلى اليمن ثانية، وما لبثت أمه أسماء بنت شهاب أن ماتت سنة ٤٦٧هـ وقبل وفاتها زوجته بأروى الصليحي التي اشتهرت بالذكاء والخبرة

السياسية، وقد رأت أن تجعل ذي جبل دار قرار وهي مدينة جميلة كان قد اختطها عبد الله الصليحي بأمر أخيه الملك علي الصليحي وتتنصف باعتدال المناخ وخصوبة الأرض.

وبعد فترة أصيب المكرم بالفالج واحتجب عن رعاياه مما أعطى الفرصة لزوجته الملكة أروى لممارسة شؤون الدولة ثم وافت المنية المكرم في حصن التعكر سنة ٤٨٤ هـ فبدأت صفحة جديدة أخرى من صفحات تاريخ اليمن، حيث السلطة الحقيقية للملكة أروى.

وكان المكرم قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر، ولكن الملكة أروى أرادت تولية ابنها الطفل عبد المستنصر حتى تحتفظ بالسلطة وكتبت إلى الإمام المستنصر بالله تطلب موافقته وكان الإمام يحترم الملكة أروى، ولذا استجاب لطلبها، ولكن بعض أمراء اليمن أبوا إطاعة ذلك الغلام الصغير، وبدأت بوادر جديدة للخلافات والصراعات، مما هدد الدعوة الفاطمية في اليمن.

وحسم الإمام المستنصر هذا الشقاق برسالة إلى هؤلاء الأمراء، يحثهم فيها على طاعة الملكة الحرة وابنها عبد المستنصر، وذكرهم بأفضال علي الصليحي والمكرم، كما أشاد بالملكة أروى ووصفها بأنها (الحرّة الملكة السيدة المحرّة المخلصة المكيّة ذخيرة الدين عمدة المؤمنين).

وعادت الأمور في اليمن ثانية إلى التعقيد، فقد مات عبد المستنصر وبدأت فترة صراع بين الداعي سبأ بن أحمد والملكة أروى حول حكم اليمن وطلب سبأ الزواج من الملكة فرفضت طلبه فلجأ إلى الإمام المستنصر الذي أمر بانتهاء الزواج واستجابت الملكة أروى لأمر الإمام، رغم كراهيتها لهذا الزواج، مما يدل على ما كان للخلفاء الفاطميين من نفوذ روحي في بلاد اليمن، لأن الملكة أروى اعتبرت الخروج على أمر الإمام خروجاً على الدين.

قامت الملكة الحرة أروى بدور بارز في هذا التحول الخطير في مسار الدعوة الفاطمية في اليمن، وقد اشتهرت بالتبحر في علم التنزيل والتأويل، والحديث الثابت عن الرسول والأئمة، وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر، ويأخذون عنها ويرجعون إليها في مشكلات الدين.

ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على سعة أفقها ووفرة علمها، وكانت إلى جانب علمها ونسكها وورعها وزهدا خبرة بشؤون السياسة، عارفة بأحوال الرعية، فلا غرو أن استحقت اسم (بليقيس اليمن الصغرى).

أصبح حكم اليمن للملكة أروى وزوجها سبأ منذ سنة ٤٨٤ هـ، وحتى توفي سبأ سنة ٤٩٥ هـ، ويصفه المؤرخ أبو الفدا بأنه (آخر الملوك الصليحيين) ثم قدم إلى اليمن من مصر داعي جديد هو علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ فقام بأمر الدعوة والمملكة بدلاً من سبأ.

واستمرت الملكة الحرة أروى محتفظة بالسلطة الحقيقية بعد وفاة زوجها وحتى موتها سنة ٥٣٢ هـ، وقامت بإرسال دعايتها إلى الهند وإلى عمان لنشر الدعوة الفاطمية وفي الحقيقة، بدأ توثق الصلات بين اليمن والهند في عهد تلك الملكة وكان زعيم بني نجاح، أعداء الصليحيين جياش بن نجاح، قد هرب إلى الهند بعد مصرع أخيه سعيد الأحول بن نجاح، ثم عاد إلى اليمن

بعد أن علم بمرض المكرم بالفالج وانتشار الإضطرابات في اليمن، وكان قد تزوج بجارية هندية أنجب منها ابنة (الفاتك) الذي خلف أباه بعد ذلك في الحكم سنة ٤٨٩ هـ، وقد اشتبك جيش هذا في سلسلة من الحروب المتصلة مع سبأ.

استمرت الملكة الحرة أروى على ولائها للإمام المستنصر حتى وفاته سنة ٤٨٧ هـ ثم أعلنت ولاءها لابنه الامام أبي القاسم أحمد الذي اتخذ لقب (المستعلي بالله) وقد نازعه أخوه نزار في الامامة، مما أدى إلى خروج طائفة عن طاعة الاما المستعلي وهي طائفة النزارية. وانتقلت الدعوة النزارية على يد الحسن الصباح إلى فارس، وكان الصباح يدعو إلى (الامام المستور) بعد مصرع نزار سنة ٤٨٨ هـ.

واشتغل الحسن الصباح مبدأ التعليم من الإمام المعصوم، فالإنسان لا يعرف شيئاً إلى بطريق الامام أو نائبه، وما دام هو نائب الامام فقد زعم أنه أصبح مصدر العرفان كما لجأ الصباح إلى التأويل فأول القرآن تأويلاً يتفق ونزعاته السياسية، كما أشاع عقيدة الامام المعصوم ليحمل الناس على طاعته، وخصص جماعة من أتباعه يهدّدون أعداءهم بالخناجر المسمومة، فسموا الفداوية، وأصبحت قلعة الموت التي صعد إليها الصباح سنة ٤٨٣ هـ مركزاً له ولجماعته.

حرص الامام المستعلي على انفاذ رسالة إلى الملكة أروى (٨ صفر ٤٨٩هـ) ينقل فيها صورة للأحداث في مصر، وقضاء وزيره الأفضل على ثورة نزار. كما أرسلت والدة الامام المستعلي رسالة أخرى إلى الملكة تؤكد فيها عهد المستنصر لابنه المستعلي، وتشير إلى ثورة نزار والقضاء عليها وأصبحت بلاد اليمن توالى طائفة المستعلية، بينما انتشرت الدعوة النزارية في فارس.

وبعد موت سبأ سنة ٤٩٢ هـ عهدت الملكة أروى بالدعوة إلى المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري ولكن اضطربت أحوال اليمن، فقد خرجت صنعاء على طاعة الصليحيين، وتزعم الثوار حاتم المغلس الهمداني. كما عاود بنو نجاح إثارة الاضطرابات نتيجة وقوع خلافات بينهم، ونجحت الملكة أروى في اجتذات منصور بن فاتك بن جياش إليها. واشتغل المفضل بقتال الثوار من بني نجاح، فانتهزت جماعة من الفقهاء هذه الفرصة لإعلان الثورة والاسيلاء على حصن (التعكر) بمعاونة بني الزر من قبيلة خولان، وما لبث أن مات المفضل سنة ٥٠٤ هـ وبرزت مهارة الملكة أروى السياسة فقد خرجت بنفسها إلى حصن التعكر وطلبت من الفقهاء الجلاء عن الحصن ووعدتهم بتحقيق شروطهم، فاستجابوا لها واستعادت الحصن وولت عليه مولاه ابن مفتاح ونجحت في القضاء على الفتن التي أثارها بنو الزر، حيث عاثوا في الأرض فساداً.

ولّت الملكة أروى شؤون الدعوة الفاطمية، بعد موت المفضل، ابن عمه الأمير أسعد بن أبي الفتوح بن العلاء بن الوليد الحميري، ولكنه ما لبث أن اغتاله بعض أعدائه في حصن تعز، وهنا رأت أروى اللجوء إلى الخلافة الفاطمية بالقاهرة تطلب إيفاد من يعاونها على استقرار الأمور في اليمن فأرسل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي -كما ذكرنا آنفاً- الداعي علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ وكان متفقاً في أصول الدعوة الإسماعيلية وكان على خزائن الكتب

الأفضلية بمصر، وموضع ثقة الأئمة الفاطميين، وقدم ابن نجيب الدولة إلى ذي جبلة، حيث التقى بالملكة أروى، فقلدته أمور جيشها، وتمكن من القضاء على الفتن الداخلية وأعاد الأمن وأخضع خولان، كما اهتم بالشؤون الاقتصادية.

انتعشت الدعوة الفاطمية مرة أخرى في بلاد اليمن في عهد الإمام الأمر بالله على يد الداعي الجديد ابن نجيب الدولة، الذي أصبح الساعد الأيمن للملكة أروى، وتوطدت سلطة الداعي بعد مصرع الأفضل الجمالي، وتولى المأمون البطائحي الوزارة في مصر، واهتم البطائحي بتوطيد أركان الدعوة الفاطمية بالمين فأمدّه بكثير من الأموال والرجال وفوضه شؤون بلاد اليمن، وأمره بطاعة الملكة أروى.

ولكن الدعوة الفاطمية في اليمن ما لبثت أن أصابتها نكسة أخرى، نتيجة إيقاع الحاقدين والحاسدين بين الملكة أروى ووزيرها ابن نجيب الدولة الذي مالبث أن اتهمها بالخبل والتخريف وأراد الحجر عليها، ويبدو أن هذا الداعي قد أصابه الغرور والكبرياء، حتى أنه تناول على الملكة أروى، وعلى رسول الوزير البطائحي الذي قدم إلى اليمن سنة ٥٢٠هـ واستمال أعداء ابن نجيب الدولة رسول الوزير، فنقل إلى الإمام الفاطمي الأمر والوزير أخبار انحراف ابن نجيب الدولة عن الطاعة وميله إلى الدعوة النزارية.

غضبت الدولة الفاطمية على ابن نجيب الدولة، ويعت الأмир الموفق بن الخياط للقبض عليه، وأبدت الملكة أروى سماحة عظيمة إذ رفضت في أول الأمر تسليم ابن نجيب الدولة إلى الموفق، بل نفت عنه كل الاتهامات الموجهة إليه وتكاثر الحاسدون والحاقدون، وانتهى الأمر بالقبض على ابن نجيب الدولة وإنفاذه إلى مصر، واختلف المؤرخون في الصورة التي انتهت بها حياته. اختارت الملكة أروى للدعوة الفاطمية داعياً جديداً هو إبراهيم بن الحسن الحامدي، كما عهدت بتولي شؤون اليمن إلى علي بن عبد الله الصليحي، ابن أخي علي بن محمد الصليحي ولم تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن جهودهما أو أعمالهما.

ولكن اليمن أصبحت في حالة مضطربة قلقه، فقد بدأت كثير من الحركات الاستقلالية وانتشرت الروح الانفصالية الإقليمية، وطمع الكثير في ممتلكات الصليحيين ورغم هذه الاضطرابات السياسية فقد استمرت الدعوة الفاطمية قائمة وبقيت الملكة أروى على ولائها لجماعة المستعلية ولالإمام الأمر بالله.



ثم بدأت فترة تحول خطيرة في الدعوة الفاطمية باليمن بمولد الإمام أبي القاسم الطيب في ربيع الثاني سنة ٥٢٤هـ، وحرص الإمام الأمر على الكتابة إلى الملكة الحرة بمولد وليّ عهده ويطلب منها إذاعة هذا النبأ السعيد في أرجاء اليمن، ووصف الإمام الأمر الملكة أروى في هذا

السجل بأنها: الحرة السيدة الرضوية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خاصة الإمام، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستنجدين، عصمة المسترشدين، وولية أمر المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين..)

واستجابت الملكة الحرة لرغبة الإمام الأمر بإذاعة أنباء مولد ولي عهده الطيب وسرعان ما لقي الإمام الأمر مصرعه في ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ على يد بعض أعدائه من النزارية، فأصبح في عداد الشهداء الأبرار وتولى قادة الجيش السلطة في مصر واختاروا أبا ميمون عبد المجيد، ابن عم الأمر، ليتولى ولاية العهد ثم الخلافة بعد ذلك، ولقبوه بالحافظ لدين الله، وحاول الحافظ إخفاء أمر الإمام الطيب بن الأمر، ولكن كثيراً من المصريين ظلوا على ولائهم للإمام الطيب وخاصة في مدينة الاسكندرية.

ويجب هنا الفصل بين السلطة السياسية، وبين الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، فقد انكسرت السلطة السياسية بتضاؤل نفوذ الملكة الحرة السياسية نتيجة قيام الحركات الاستقلالية والانفصالية ولكن الدعوة الفاطمية انتعشت كثيراً في اليمن نتيجة مصرع الإمام الأمر ثم اغتصاب الحافظ حق الإمام الطيب، وخاصة أن الدعوة الإسماعيلية في مصر لقيت عداء شديداً من الوزير أبي علي أحمد بن الأفضل الذي تنكر لوصية الإمام الأمر ورأى الاستبداد بالسلطة فحجر على الخليفة الجديد الحافظ، حتى أصبح سجين قصره، بل أقدم الوزير على حذف اسم الخليفة من الخطبة.

عمل الوزير ابن الأفضل على إضعاف المذهب الإسماعيلي وانعاش مذهب الإمامية الذي كان يعتنقه، ولكن هذا الوزير الخائن ما لبث أن لقي حتفه على يد بعض المصريين من الشيعة، وبدأ صراع الوزراء حول السلطة في مصر.

أعلنت الملكة الحرة أروى رفضها الاعتراف بإمامة الحافظ، رغم أنه أرسل إليها عدة رسائل يحاول فيها استمالتها وإقناعها بالاعتراف به، ولكنها أثرت الولاء للإمام الطيب، ولقي عدم اعتراف الملكة بإمامة الحافظ ارتياحاً من جماعة المستعلية بمصر، التي كانت ترى وجوب انحصار الإمامة في أولاد المستعلي، بل إن هذه الجماعة نظرت إلى السيدة الحرة على أنها الممثلة الحقيقية للمذهب الإسماعيلي في بلاد اليمن.

رأت الملكة الحرة أروى أن تكون حاملة لواء الدعوة الطيبية المستعلية في اليمن، وعهدت بأمور الدعوة إلى أول الدعاة الفاطميين في عهد الاستتار وهو الداعي الذئب بن موسى الوادعي. ثم توفت الملكة الحرة أروى، فكانت وفاتها ختاماً لصفحة مشرقة من صفحات تاريخ اليمن عامة، وتاريخ الدعوة الفاطمية باليمن خاصة، وكانت وفاتها في شهر شعبان سنة ٥٣٢هـ. ودفنت في جامع ذي جبلة، ولا يزال قبرها حتى اليوم يزوره كثير من المسلمين اعترافاً بفضلها وجهودها، وكان عمرها حين وفاتها أكثر من اثنين وتسعين عاماً.

وبعد موت الملكة أروى، انفصلت الشؤون السياسية عن أمور الدعوة الفاطمية الطيبية، أما

الدعوة فقد تولاهما الداعي الذؤيب الوادعي يعاونه الخطاب بن الحسن الذي اختارته الملكة قبيل وفاتها لمعاونة الذؤيب.

أما الشؤون السياسية والإدارية فقد تولاهما المنصور بن المفضل بن أبي البركات الذي آلت إليه قلاع الصليحيين، وشعر المنصور بعجزه عن الدفاع عن هذه القلاع، فباعها لآل زريع بمائة ألف دينار، وكان هؤلاء قد خرجوا على طاعة الملكة الحرة ووالوا الخليفة الفاطمي الحافظ، وكانوا يقيمون في عدن.

وكان ابتعاد الدعوة الفاطمية المستعيلة الطيبة عن مشاكل السياسة فيه خير، فقد تفرغ الداعيان الذؤيب والخطاب لشؤون الدعوة بعيداً عن الأخطار أما آل زريع الذين احتفظوا بولائهم للخلفاء الفاطميين في مصر، فقد انحلت دولتهم سنة ٥٦٠هـ، حتى إذا انتهى الحكم الفاطمي في مصر، أرسل صلاح الدين الأيوبي أخاه توران شاه سنة ٥٦٩هـ ففضى على دولة بني مهد في زبيد وكانت موالية للدولة الفاطمية، ثم انتزع صنعاء سنة ٥٧٠هـ من شيوخ همدان وسيطر على معظم أرجاء اليمن، ثم رجع إلى مصر بعد أن عهد بالحكم لم يثق بهم.

ورغم هذه الأحداث السياسية المتلاحقة، وهذه التغيرات الإدارية المتوالية فقد استمرت الدعوة الفاطمية الطيبية باقية في اليمن يتولى دعوتها دعاة مخلصون ويعين الداعي خلفه في حياته بالنص عليه، فليس هناك إمام يختار الداعي ومادام الداعي هو نائب الإمام في الدعوة حتى يظهر، فمن حقه أن ينص على من يخلفه في الدعوة، وقد ينص على اختيار ابنه أو أحد أقاربه، أو أحد ثقاته من غير أسرته وقد واجه الدعاة كثيراً من المصاعب والمتاعب، وتعرضوا لألوان متعددة من الإيذاء والاضطهاد، مما جعلهم ينتقلون بين كثير من المدن والقرى باليمن، ولجأوا غالباً إلى إخفاء دعوتهم.

ومن أشهر الدعاة الفاطميين الطيبين باليمن، الداعي الخامس علي بن محمد الوليد، وكان مولده معاصراً لنهاية الدولة الفاطمية في مصر، وهو الذي منح (دعوة الستر) شكلها الثابت المتميز، وقد كان أديباً بارزاً وشاعراً مجيداً اتخذ من شعره وسيلة لنشر الدعوة الفاطمية. وتوالى الدعاة الفاطميين باليمن، وعاشوا حياة محنة وشدة، في رحلة دائمة، وصبروا على كثير من المصاعب من أجل عقيدتهم ودعوتهم وخاصة نتيجة تعصب الأيوبيين للمذهب السني، ومحاولتهم للقضاء على البقية الباقية من آثار الفاطميين في كل مكان، ولذا ضرب هؤلاء الدعاة أمثلة رائعة للتضحية والصبر والوفاء.

بلغ عدد الدعاة الفاطميين باليمن ثلاثة وعشرين داعياً، كان آخرهم (محمد منة ربه)، وقد وقع اختياره على خلفه الداعي الهندي يوسف سيد بوري سنة ٩٤٦هـ (١٥٣٩م) فانتقلت بذلك الدعوة الفاطمية الطيبية إلى الهند.

الظهر الجديد الدعوة الفاطمية في الهند

أصبح عماد الدين إدريس بن الحسن الداعي الفاطمي، التاسع عشر في سلسلة دعاة دور الستر في بلاد اليمن، وهو الممهد لنقل رتبة الدعوة من اليمن إلى الهند، وكان مولد عماد الدين سنة ٧٩٤هـ في حصن شبام، وهو جبل عال منيع في غرب اليمن قرب شاطئ البحر الأحمر، وكانت وفاته أيضاً في حصن شبام سنة ٨٧٢هـ، وعمره يومئذ ثمان وسبعون سنة.

قام عماد الدين إدريس بالدعوة الفاطمية في اليمن في ظروف صعبة، فقد كان (بنو رسول) يسيطرون على معظم أرجاء اليمن، وقد بدأ حكمهم سنة ٦٢٦هـ، وحتى سنة ٨٥٨هـ (١٢٢٩-١٤٥٤م) ولما كان مولد عماد الدين إدريس في سنة ٧٩٥هـ ووفاته في سنة ٨٧٢هـ فقد شهد خلال حياته المجيدة انتهاء حكم هذه الدولة اليمنية السنية.

وكان هؤلاء الملوك يحاكون سلاطين الممالك في مصر في أيامهم وفي أكثر مظاهر السلطان، كما كان الزيدوني (وهم الشيعة) يسيطرون على صعدة، وأبدوا عداً واضحاً للطيبين، وخاصة في عهد الداعي المطلق علي بن حنظلة ابن أبي سالم.

ويعتبر عماد الدين إدريس هو شيخ المدرسة الفكرية الفاطمية باليمن، فقد نبغ في التاريخ إلى جانب نبوغه في الدين والفقه والأدب، وأصبح عماد الدين عبقرية نادرة، تحدث عنها السيد الدكتور يوسف نجم الدين، أمير الجامعة الفاطمية، فقال: (كان فارس الفرسان برز في ميدان الحرب، أو جرى في ميدان الأدب، ماهراً في علم السياسة، التي هي السياسة الإلهية الدينية. فأنظر إلى قدرته كمؤرخ الفاطميين فهو كابلغ المؤرخين فناً ويحناً وتحقيقاً وأنظر إلى نثره فهو من أمهر الأدباء في استقصاء معانيه وعرضها في أفصح الأداء، ثم انظر إلى شعره تجد فيه بارزاً كل سجية من سجاياه الملكوتية.

وشهد عهد قيام عماد الدين إدريس بالدعوة الفاطمية تمهيداً لنقل هذه الدعوة الطيبية إلى الهند، فقد أبدى عماد الدين ميلاً واضحاً وإعجاباً بمن كان يأتي عليه من الهند، من المؤمنين الصادقين، فكان يرحب بهم ويقربهم إليه، تقديرًا لما هم عليه من يقين وولاء.

وأثارت هذه المعاملة الكريمة لهؤلاء الهنود غير بعض اليمنيين وأراد عماد الدين إدريس أن يثبت لهؤلاء الحاسدين الغيورين جدارة هؤلاء الهنود بترحيبه وتكريمه، فأجرى لهم امتحاناً في أصول الدعوة، على مشهد ومسمع من هؤلاء اليمنيين، فنجحوا نجاحاً باهراً، فقطع بذلك كل اعتراض أو احتجاج.

وما لبث أن اختار عماد الدين إدريس ولاته بالهند، فاخلصوا للدعوة الفاطمية إخلاصاً عميقاً، مما جعله يتنبأ بخروج الدعوة من اليمن إلى الهند، وخلودها في الهند، فقد كان عماد الدين إدريس على جانب كبير من الورع والتدين واشتهر بالإلهام والشفافية.

ثم أن الأوان لانتقال الدعوة الفاطمية الطيبة من اليمن إلى الهند، فقد رحل الداعي المطلق الثالث والعشرون عز الدين (منه ربه) إلى الهند لينتخب خليفته في الدعوة من أتباعه المخلصين في الهند.

وفي الهند وقع اختياره على (يوسف سيد بوري) فقد اشتهر بالتدين والورع والكفاءة، وصحبه إلى اليمن حيث لازمه، وأثبت يوسف نبوغه في العلوم والمعارف وتفهم أسرار الدعوة، حتى إذا تبين الداعي الهندي النجيب للقيام بالدعوة قلده بنصه وأطلقه في دعوته.

وهكذا انتقلت الدعوة الفاطمية إلى الهند سنة ٩٤٦هـ (١٥٣٩م) وتولى الداعي المطلق، الهندي، يوسف سيد بوري الدعوة الفاطمية الطيبية عشر سنوات حتى توفي سنة ٩٧٤م وخلال هذه السنوات زار بلاد اليمن ونجح في ضمها إلى دعوته فأصبح اليمنيون في ولائه الديني وبذلك أصبحت اليمن تابعة روحياً للداعي المطلق في الهند، بعد أن كانت الهند تابعة لداعي اليمن.

وفي رأينا، كانت هناك دوافع قوية دفعت بالداعي المطلق اليمني الثالث والعشرين إلى نقل رئاسة الدعوة إلى الهند، وقد كان الداعي التاسع عشر عماد الدين إدريس -كما رأينا- قد فكر في هذه الخطوة الكبيرة المباركة، ومهد لها وإن لم يحققها عملياً ولا شك أن عواملاً كثيرة بارزة تكاثفت وتبلورت خلال عهود الدعاة العشرين والحادي والعشرين والثاني والعشرين حتى أيقن الداعي الثالث والعشرين صعوبة بقاء الدعوة الفاطمية في أرض اليمن، ووجد أرض الهند أكثر خصوبة لبقاء ونماء ورخاء الدعوة الفاطمية الطيبية، فقد عانى الدعاة الأخيرون من الاضطهاد، وتنقلوا بين أرجاء اليمن تقيّة من أعدائهم ونجاة من الإيذاء، ولا شك أن تلك الظروف أعاقتهم أحياناً عن أداء واجباتهم على الوجه الأكمل الذي يبغونه لخدمة دعوتهم الفاطمية الزاهرة.

ووجد الدعاة الأخيرون باليمن (١٩-٢٣) أن من صالح الدعوة الفاطمية نقلها إلى الهند حيث يتوفر لها ما يريدون لها من أمن وسلام، وخاصة أن الهند تضم كثيراً من الأديان والعقائد والمذاهب. كما يؤمن كثير من الهنود بالروحانيات.

ونعتقد أيضاً أن نقل الدعوة الفاطمية من اليمن إلى الهند لم يكن أمراً سهلاً، ولا شك أنه لاقى بعض المعارضة من نضر من اليمنيين، وقد تكون هذه المعارضة نتيجة غيرتهم على دعوتهم ورغبتهم في بقائها في أرضهم حيث عاشت دهرأ، وحيث يستمدون البركات من داعيهم المطلق القائم بينهم، والموجود بين ظهرائهم. وقد تكون هذه المعارضة أيضاً نتيجة عصبية عنصرية، فقد اشتهر كثير من أهالي اليمن عبر العصور التاريخية باعتزازهم بجنسهم العربي، وقد يدفع هذا الاعتزاز بعضهم أحياناً إلى التعصب لعنصرهم.

وخير دليل على رأينا هذا ما مربنا من سخط بعض اليمنيين على تقريب الداعي الفاطمي المطلق عماد الدين إدريس لبعض الهنود الذين سموهم (العجميين) أي الأعاجم. فقد نظروا إلى عنصرهم ولم ينظروا إلى انطوائهم في الدعوة الفاطمية، وإخلاصهم الشديد لها.

وفات هؤلاء الغيورين أن الإسلام دين عالمي، والله هو رب العالمين، ومحمد (عليه الصلاة

والسلام) هو رسول الله إلى العالمين، والإمام هو إمام جميع المسلمين المؤمنين، وداعيه المطلق هو حامل لواء الدعوة ومبلغها إلى جميع المسلمين في أرجاء العالم، والإسلام لا يعترف مطلقاً بأي صورة من صور التفرقة العنصرية، ولذا فإن لجميع المسلمين نصيب في الدعوة الفاطمية، وفي بركات إمام المسلمين وداعيه المطلق، مهما كان عنصرهم وجنسهم.

ولاشك أيضاً في أن هؤلاء الغيورين ما لبثت أن هدأت غيرتهم ثم خمدت، حين أدركوا أن أرض اليمن لم تعد الأرض الصالحة لبقاء ونماء الدعوة الفاطمية، فقد تكاتفت عليها معاول الهدم، وكثر الأعداء الخبثاء، والحاقدون المغرضون.

ولاشك أيضاً أن هؤلاء قد قرّرت عيونهم وانشرحت أفئدتهم حين لمسوا استقرار الدعوة الفاطمية في أرض الهند الخصبة، ثم ازدهارها وانتشارها، حتى أصبحت شجرة باسقة يانعة، لها ثمارها الحضارية الزاهرة.

ونرى أيضاً أن اختيار الداعي المطلق الثالث والعشرين للهند لتكون مركزاً جديداً للدعوة الفاطمية، دون غيرها من الأقاليم، راجع إلى تلك الصلات القديمة بين اليمن والهند، وخاصة في ميادين التجارة، كما كان الحجاج الهنود المسلمون يمرون في طريقهم إلى الحجاز، وكانوا يشتركون في قوافل الحج اليمنية.

وكان انتقال الدعوة الفاطمية من اليمن إلى الهند، هو هجرة أخرى، تسير على نهج هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

لقد قضى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ١٣ سنة في مكة، يدعو إلى الإسلام سراً وجهرًا، وتعرض خلالها لألوان عديدة من الإيذاء والاضطهاد، حتى أن عدد المسلمين في نهاية هذه السنوات لم يزد على ثلثمائة مسلم، فقد وقفت قريش والقبائل المحالفة لها عقبة شديدة في وجه انتشار الدعوة الإسلامية.

ولذا رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يهاجر بدعوته إلى المدينة المنورة، ولم تكن الهجرة فراراً أو هرباً، بل هي نقل الشجرة الإسلامية المباركة إلى أرض خصبة تحقق لها الظروف المواتية للازدهار والإثمار وقد كانت هذه الهجرة النبوية خيراً وبركة للدعوة الإسلامية.

فقد حازت نصرها وفوزها وحقت انتشارها وازدهارها في المدينة المنورة وبعد ثمانية أعوام فحسب، توجت الدعوة الإسلامية، نصرها، فخرج الرسول الكريم على رأس عشرة آلاف مؤمن لفتح مكة، وعند وفاة الرسول، بعد عشر سنوات من الهجرة، أصبح الإسلام يعم كل أرجاء الجزيرة العربية. لقد خرج المسلمون من مكة إلى الحبشة مرتين، نجاة من إيذاء المشركين، وبقي الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة حاملاً لواء الدعوة الإسلامية، فالحبشة تصلح ملجأ وملأذا للمسلمين، ولكنها لا تصلح لتكون مكاناً يهاجر إليه النبي الكريم وفكر الرسول عليه الصلاة والسلام في الهجرة إلى الطائف لقربها من مكة، وخرج إليها في رحلة استطلاعية، ولكنه سرعان ما أدرك عدم صلاحيتها للهجرة، فقد واجه عداء أهلها.

ثم أدرك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن المدينة المنورة هي أنسب مكان يهاجر إليه هو والمسلمون وكان الرسول الكريم على حق تماماً في تقديره الحكيم فقد حاز الإسلام كل انتصاراته في المدينة التي أصبحت مركز انطلاق الحضارة الإسلامية إلى كل أنحاء العالم.

ولاشك أن الداعي الفاطمي الثالث والعشرين قد أمعن في التفكير طويلاً قبل أن يختار بلاد الهند، لتهاجر إليها الدعوة الفاطمية، ولاشك أيضاً أن فكره راح إلى كثير من الأقطار الإسلامية، ثم أيقن أن الهند هي أصلح هذه الأقاليم وأنسبها وأكثرها أمناً وخصوصية، وكان قراره حكيماً صادقاً، وها نحن جميعاً نلمس ونشهد ازدهار الدعوة الفاطمية في الهند ومساهمتها الواسعة الإيجابية في نشر الحضارة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي.

وكانت الحبشة هي أرض الهجرة المؤقتة التي خرج المسلمون إليها في هجرتين متتاليتين، حتى أذن الله تعالى بالهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة، وكذلك كانت اليمن هي مكان الهجرة المؤقت الذي هاجرت إليه الدعوة الفاطمية من مصر، وثم كانت الهجرة الكبرى لهذه الدعوة الفاطمية إلى الهند.

ولم يكن انتقال الدعوة الفاطمية مسألة عضوية، أو إجراء سريعاً عادياً، بل هو لحكمة إلهية كبيرة، إذ أراد المولى عز وجل لهذه الدعوة الزاهرة الخير والبركة والازدهار، كما كان انتقالها نتيجة تدبير سابق محكم، وتنظيم دقيق ملهم.

ظلت الدعوة الفاطمية الطيبية قائمة ومستمرة في الهند تواجه كثيراً من الصعوبات وتعاني غالباً من اضطهاد سلاطين الهند، وقد واجه الدعاة المطلقون هذه الصعوبات بصبر فائق وشجاعة عظيمة، وتنقلوا بين كثير من المدن تقية، وكما نجح الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون في مواجهة عداء المشركين، وحازوا نصراً مؤزراً، وظلت رسالة الإسلام باقية حتى الآن، وإلى يوم الساعة، نجح الدعاة الفاطميون في الهند في مواجهة أعدائهم، وفازوا بثمرة جهادهم وكفاحهم، فها هي الدعوة الفاطمية قائمة زاهرة، وستظل تؤدي واجبها وتحمل رسالتها حتى آخر الطريق حين تحين ساعة هذا العالم.

اشتغل معظم أتباع الدعوة الفاطمية بالتجارة، فهي أبعد الحرف عن مواقع الريبة ومواطن الظن وأقربها إلى الكسب الحلال، مع ما فيها من تيمن بالرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان يعمل بالتجارة قبل أن ينزل عليه الوحي وهو في الأربعين من عمره المجيد، وقد أطلق على هؤلاء التجار من الفاطميين الطيبين اسم (البهرة) ومعناها التجار في اللغة السائدة في غرب الهند، ويزيد أتباع هذه الطائفة على مليون ونصف مليون نسمة، ينتشرون في الهند وشرق إفريقيا واليمن والباكستان والشرق الأقصى وإنجلترا، أما الهند فهي المركز الرئيس ومقر السلطان الداعي الفاطمي الأجل.

وتؤمن طائفة البهرة المجيدة بوجود إمام مستور، وهو يتولى الإمامة بالتوارث المباشر ابتداء من الإمام الحادي والعشرين وهو الإمام الطيب بن الأمر ولا يخلو زمان من هؤلاء الأئمة المستترين

بينما يقوم الداعي الفاطمي المطلق الأجل بالدعوة العلنية والإرشاد والإشراف الروحيين، كما أنه مصدر سلطة يرجع إليه أتباع الطائفة في أمورهم ويحتكمون إليه ويستترشدون به ويهتدون بحكمته وهدايته.

كتب جعفر بن منصور اليماني، في كتابه الذي حوى سيرة أبيه الداعي الإسماعيلي الفاطمي المعروف بابن حوشب (منصور اليماني) يحدد ويرسم أبعاد الدعوة الفاطمية حينما يكون الإمام مستورا، فقال: (وإذا وقع استتار الإمام لم تكن دعوته بمعدومة ولو في جزيرة من الجزائر، بأمره أو بأمر الناس عليه، والمشير إليه، فهو موجود بوجود حدوده، الذين يدلون عليه ويدعون إليه ويقيّمون مناسك دعوته من فروضها وسنتها وحلالها وحرامها، وظهور دعوته وإقامتها بوجود ثلاث مراتب: الداعي المطلق والمأذون المطلق والمحدود، فأما الأبواب والحجج ودعاة البلاغ، فلا يفارقونه من وراء سجف الأستار) أصبح هذا التنظيم الذي كتبه جعفر بن منصور اليماني هو الدستور الذي ينهجه الدعاة الفاطميون، ويتضح من ذلك النص وجود ثلاث مراتب للدعوة الفاطمية خلال استتار الأئمة، فهناك، (الداعي المطلق) وهو رأس الدعوة ويتولى بنص من الداعي السالف له، وهو نائب الإمام وهو القائم بدله بكل شؤون الدعوة، وهو منبع العلوم الدينية وراعي شؤون الدين والدنيا. وبعد الداعي المطلق، يأتي (المأذون المطلق)، وهو الرجل الثاني في الدعوة، ثم يأتي المكاسر وهو الحد الثالث فيها.

ويجب طاعة الدعاة، إذ أن طاعتهم هي من طاعة الإمام، فالداعي في دور الستري يقوم مقام الإمام، ولذا مرضاة الداعي من مرضاة الإمام وتعظيم حرمة الإمام في تعظيم حرمة الدعاة، وشكر نعمته في شكر نعمتهم.

وإذا كان الله عز وجل قد قال: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فقد أصبح الداعي الأجل بعد استتار الإمام وهو ولي الأمر الذي تجب طاعته على المؤمنين، ورضاؤه موصل برضاء الرب.

ويتولى الداعي الفاطمي الأجل شؤون الدعوة الفاطمية الطيبية بالنص والتعين، ومن واجباته المقدسة الاهتمام بشؤون الدين والدنيا، وإرشاد أتباعه وهدايتهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، وتحقيق النهضة الحضارية، والعناية بشؤون التربية والتعليم، كل ذلك بعلم سابق، وإلهام من الله عز وجل ويتأيّد كمن وليه مواصل لداعيه في كل وقت وحين.

إستتر الإمام، فغربت شمس الإمامة في مغرب التقية، والأئمة موجودون، ولكنهم في دور الستري، وفي كهف التقية، وراء الحجاب النوراني، وهم ينظرون من بعيد إلى دعائهم بنظر التأيّد، وإذا كان الإمام هو ممثل المسجد الحرام فإن الداعي الفاطمي المطلق الأجل هم ممثل المسجد الأقصى. وداعي كل عصر هو الوارث لجميع الشئون الملوكوتية، لأنه في عصره (مظهر صاحب الزمان)، فبوجوده بين قومه قوام الأمر.

ويمكن إيجاز عقائد البهرة (وهم الفاطميون الطيبيون) فنقول: أن البهرة يستمدون أصول عقائدهم عن الرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق أمير المؤمنين الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وعن الأئمة من بعده، وتتخلص هذه العقائد فيما يلي:

١ - توحيد المولى عز وجل وتنزيهه ونفي الإشراك فيه نفياً قاطعاً.
٢ - الاعتراف بالأنبياء والرسول وعصمتهم من كل خطأ، والإيمان بأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم الرسل والأنبياء.

٣ - التصديق بكل ما جاء في كتاب الله الحكيم، والعمل بما في القرآن الكريم ظاهراً وباطناً.
٤ - الإيمان بوصاية الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وولاية الأئمة من ذريته.

ومن أصول عقائدهم أن قيام الوصي بعد النبي هو بالنص، وكذلك لا يكون قيام الأئمة من بعد الوصي إلا بالنص، فينص الأب على ابنه، ويستمر ذلك بالتسلسل حتى يوم القيامة.

٥ - وجوب وجود إمام يتولى الزعامة الروحية في العالم، فيكون الهادي والمرشد ويقود الناس إلى طريق الحق والحضارة، وفي حالة استتار الأئمة ينوب عنهم الدعاة في حمل الأمانة وأداء الواجب المقدس وتكون طاعتهم من طاعة الإمام.

٦ - وجوب الأخذ عن الأئمة أو عن الدعاة الذين ينوبون عنهم في جميع أمور الدين والدنيا، فيما لم يرد فيه النص من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٧ - وجوب الجهاد في سبيل نشر الإسلام، وبذل النفس والنفيس بإرشاد الداعي الفاطمي الأجل المطلق.

وتوفير وسائل نشر الإسلام، وما يتطلبه ذلك من العناية بشئون التربية والتعليم، والنهضة الاقتصادية، مما يعزز حضارة الإسلام.

٨ - وجوب التمسك بأركان وشعائر الإسلام، حسب المذهب الفاطمي وفقهه من ولاية وطهارة وصلاة وزكاة وصوم جهاد.

ومن تقاليد أبناء الطائفة الفاطمية الطيبة القديمة المتواترة ذلك العهد أو القسم الذي يقدمه كل من ينتمي لهذه الجماعة حينما يدرك سن البلوغ أو حينما يبلغ الخامسة عشر من عمره، ويتلقى الداعي المطلق هذا العهد ويعرف هذا القسم باسم (عهد الله) أو (عهد الأولياء).

ونحن نقول: لقد أصبح القرن العشرون قرن الماديات، وابتعدت كثير من شعوب الأرض عن الروحانيات، وعن الفضائل والمثل العليا، وأدت هذه المادية إلى حروب دولية، وإلى نزاع سياسي، وإلى صراع اجتماعي، وافترقت كثير من المجتمعات الجوانب الإنسانية، والفضائل الأخلاقية، وانتشرت الأنانية بين الأفراد والجماعات، وظهرت الروح الانعزالية والاتجاهات الانفصالية واثارت العصبية العنصرية وأدى هذا كله إلى تفتت وحدة الأسرة البشرية وإلى التناوب الاجتماعي.

وأصبحت الدول والمجتمعات في حاجة ماسة إلى عودة الروحانيات والمشاعر الإنسانية والعلاقات الاجتماعية التي تقوم على الإخاء والتعاون والتآسي، ولن يتحقق هذا كله إلا بالعودة إلى حصن

الدين والإيمان، وهذا يتطلب زعامة روحية تتولى الإرشاد والهداية، وتنير السبيل، وتهدي إلى طريق الحق والرخاء والسلام، فلا بد لكل رعية من راع رشيد حكيم يقودها إلى خيرها وصلاحها. فلا عجب أن أصبح الداعي الفاطمي الأجل هو الشمس المنيرة الساطعة التي تدور في فلكها النجوم والكواكب تستمد منها النور المشرق، الذي يحقق لها الضياء والسناء.

كما أصبح الراعي المسؤول عن رعيته، يوفر لها النهضة الفكرية والرفعة العلمية والتقدم الاقتصادي.

وهو أيضاً الراية الخفاقة في سماء العالم الإسلامي يرنو إليها المؤمنون بعين التقدير والإجلال.



ثم كان العصر الذهبي المجيد للدعوة الفاطمية حين تولاهما الداعي الفاطمي الأجل والسلطان العظيم طاهر سيف الدين وهو الداعي المطلق الحادي والخمسون في سلسلة الدعاة الفاطميين الأمجاد الذين حملوا لواء الدعوة والجهاد والنهضة بعد استتار الإمام الحادي والعشرين عليه السلام.

تولى السلطان طاهر سيف الدين الدعوة الفاطمية الزهراء سنة ١٩١٥ وحمل الأمانة وقام بالمهمة الجليلة خمسين سنة حتى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٥، فكانت هذه الأعوام الخمسون خيراً وبركة على الفاطميين خاصة وعلى العالم الإسلامي عامة فقد شهدت هذه السنوات المجيدة تحولاً عميقاً في سير الدعوة الفاطمية، فقد حقق لها الانتشار والازدهار، كما ساهم السلطان الراحل الأجل مساهمة فعالة واضحة في تقدم وارتقاء الحضارة الإسلامية وفي نهضة واعتزاز الثقافة الإسلامية.

لقد كان الداعي العظيم والسلطان المجيد، رضوان الله عليه عبقرية نادرة وشخصية فذة، تشهد بذلك أعماله الجليلة، وتراثه العلمي المجيد، فاكسب بذلك كله احترام جميع المسلمين، فرنت إليه الأبصار وخفقت بحبه القلوب.

حمل السلطان الراحل لواء الدعوة الفاطمية ورسالتها الحضارية من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٦٥، وهي فترة طويلة خطيرة من فترات تاريخ عالمنا الإسلامي فقد شهدت تلك الفترة حربين عالميتين وانتقال العالم الإسلامي من عهود الاحتلال والاستعمار إلى عهود الاستقلال والنهضة وما صاحب ذلك من كفاح وجهاد، كما شهدت تلك الفترة أيضاً تحرر العالم الإسلامي من المؤثرات الفكرية الأوروبية والعودة إلى الحضارة الإسلامية الأصيلة والفكر العربي العريق، وقد شارك السلطان الراحل العظيم، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، في هذه الأحداث كلها، وأصبح عضداً لحركات التحرر السياسي والفكري في جمعي أرجاء العالم الإسلامي.

وشهد العالم الإسلامي في مطلع عهد السلطان الأجل الراحل سقوط الدولة العثمانية وهي الدولة التي حكمت أرجاء واسعة من العالم الإسلامي وخاصة في العالم العربي قروناً

طويلة، وقد حاول العثمانيون الأتراك تتركب العالم العربي والقضاء على الثقافة العربية، وصبغ الحضارة العربية بالطابع التركي.

وبدا صراع فكري وحضاري بين العرب والعثمانيين، وساهم السلطان العظيم الراحل في حماية الثقافة العربية كما عمل على نهضتها ورفعتها، فهو الحافظ الأمين للتراث الفاطمي العربي الذي يمثل الأسس الوطيدة للحضارتين الإسلامية والعربية ولذا بدا السلطان العالم في وضع كثير من المؤلفات العلمية والتاريخية والدينية القيمة، درس فيها التراث الفاطمي، وقدم للمسلمين والعرب نبذات وافية نفيسة من تراث الأئمة الفاطميين الأمجاد وعلمائها وفقهاء وأدباء العصر الفاطمي الزاهر في المغرب ومصر واليمن.

كما أصبحت الجامعة السيفية في (سورت) بالهند حصناً للثقافة العربية، وقلعة للحضارة الإسلامية، وأصبحت أيضاً جهود السلطان لأجل العلمية والفكرية أنواراً ساطعة أيضاً للمسلمين جميعاً الطريق القويم الذي ينتهي بهم إلى النهضة والحضارة والمدنية. وشهدت السنوات العشرون الأخيرة من عهد المجيد الرشيد صراعاً سياسياً ومذهبياً بين الدول العظمى، وحاولت هذه الدول نشر أفكارها ومذاهبها في العالم الإسلامي، وهي تخالف أصول الإسلام وفكره وحضارته، إذ هي تجمع بين المادية والإلحاد.

ونجح السلطان لأجل الراحل في الدفاع عن الإسلام وحضارته ضد هذه المبادئ والأفكار الخبيثة المستوردة، فأصبح بتوفيق الله سيف الإسلام البتار الذي حقق للإسلام الانتصار. وفي سنة ١٩٢٣ كانت قد سقطت الخلافة العثمانية وكان السلطان العثماني سليم الأول حينما فتح مصر سنة ١٥١٧ قد أرغم آخر الخلفاء العباسيين المقيمين بالقاهرة على التنازل له عن الخلافة، ولم يؤمن معظم المسلمين بهذه الخلافة العثمانية حين جمع العثمانيون بين السلطنة والخلافة، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (الأئمة من قريش)، والعثمانيون ليسوا قرشيين أو عرباً.

ولكن بعض المسلمين لم يجداً بأساً من الاعتراف بهذه الخلافة العثمانية، رغم عدم إيمانهم بأحقية السلاطين العثمانيين في الخلافة فقد رأوا أن الخلافة العثمانية تمثل نظام الخلافة الوحيد القائم في العالم العربي، وقد كانت الدول العربية حينئذ خاضعة للحكم العثماني ووجدوا في هذه الخلافة خط دفاع يحميهم من الأطماع الاستعمارية الأوروبية.

ثم سقطت الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٣، ورغم أنها كانت قد وصلت في القرن السابع لسقوطها إلى حالة يرثى لها من التدهور والانحلال، إلا أن بعض المسلمين أسفوا لسقوطها فقد افتقدوا الزعامة الروحية والتوجيه الديني.

واتجهت الأبصار إلى الهند حيث تقوم الدعوة الفاطمية باسم الإمام الفاطمي، القرشي العربي، سلسل البيت النبوي الشريف، فوجدوا فيها الغذاء الروحي والمنهل الديني والمنبع الفكري وكان السلطان العظيم الراحل في سنة ١٩٢٣ قد تولى هذه الدعوة الفاطمية الزاهرة منذ أعوام

ثمانية، فنجح تماماً في توفير حاجات المسلمين الروحية والفكرية، فقد قدم لهم التراث النبوي والفاطمي، الديني والعلمي، الذي كان الأساس الوحيد لقيام النهضة الإسلامية في العصور السالفة، والذي لا يزال صالحاً تماماً لتقوم على دعائمه نهضة جديدة زاهرة.

لم تكن جهود السلطان الأجل الراحل، رضوان الله عليه، جهوداً محلية أو إقليمية بل هي جهود عالمية شملت المسلمين في جميع قارات العالم، فقد امتدت زعامته الروحية إليهم في كل مكان، يهديهم ويرشدهم ويعاونهم في أمور دينهم ودنياهم، مما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة وقام بعظمته بجولات ناجحة في العالم الإسلامي وجد خلالها كل ترحيب وتكريم.

وأصبحت الجامعة السيفية في عهده في مقدمة الجامعات الإسلامية ومقصد طلاب العلم من كل مكان، كما أصبح رئيساً لجامعة (علي كره) الإسلامية، فبلغت في عهده الذروة والقمة. إن الثقافة الإسلامية والعربية تدين بالفضل والتقدم للسلطان الأجل الراحل رحمه الله، فقد نهض بالدراسات المرتبطة بالقرآن الكريم، واهتم بعلوم الحديث النبوي ودراسات الشريعة الإسلامية الغراء.

وانتعشت في عهده المجيد دراسة التاريخ الإسلامي نتيجة إحياء التراث الفاطمي المجيد فضلاً عن ازدهار الآداب من شعر ونثر، وقد كان -رضوان الله عليه- شاعراً مجيداً بليغاً خلفاً للعربية كثيراً من دواوين الشعر الحافلة، كما كان أول من استعمل الخط العربي الكوفي الجميل في الهند في الكتابات والنقوش فحفظ بذلك تراث الآباء والأجداد الأمجاد.

أتاحت الفرصة لكاتب هذا البحث أن يقرأ الرسائل الرمضانية التي كتبها السلطان الراحل، فقد اعتاد -رحمه الله- أن يؤلف في كل رمضان من كل سنة كتاباً قيماً سماه (الرسالة الرمضانية) فاطلعت على منهج جديد، وفكر إسلامي رشيد. فقد قضى السلطان العالم سنوات طويلة في دراسة التراث الفاطمي الزاهر وقدم في معظم رسائله الرمضانية زبدة هذا التراث الجليل، و خلاصة الهدى النبوي الشريف، و جهود العلماء الفاطميين الأجلاء، كما أطلعنا السلطان الأجل على أمجاد الأئمة من آل البيت وفضلهم وعلمهم، كما أصبحت (الرسالة الرمضانية) بستاناً زاهراً يانعاً، نجد فيها ألواناً متعددة من الثمار العلمية الناضجة، فتجمع بين الحكمة العميقة المفيدة، والشعر الرصين الفصيح، والمعرفة المفيدة الجليلة، وكل هذا في أسلوب سلس يجمع بين السهولة والأعجاز. ولا غرو أن أصبح عظمة السلطان الراحل في سجل الخالدين، فقد كتب خلال سنوات حياته المجيدة صفحات من أزهر وأجل صفحات تاريخنا الإسلامي وأرسى قواعد وطيدة للحضارة الإسلامية، وساهم في رفعة الإسلام وفكره وعلومه، ولا غرو أيضاً أن يعمل المسلمون المخلصون على تمجيده، وعلى إحياء ذكراه العطرة، بإقامة تذكارات له يضم قبة رائعة ومسجداً جليلاً، يمثلان عظمة العمارة الإسلامية، وإقامة معهد كبير للدراسات الإسلامية والعربية، يكمل الجهود العظيمة التي قام بها السلطان الأجل الراحل، رحمه الله وأسكنه رضوانه وفصح جناته.

كان يوم الجمعة المبارك، السادس من مارس ١٩١٥ يوماً مشهوداً، من أيام العالم الإسلامي الخالدة، فقد أنعم المولى عز وجل على عبده المؤمن المخلص السلطان طاهر سيف الدين بغلام أطلق عليه اسماً كريماً جليلاً هو اسم سيد الرسل وخاتم الأنبياء، كما سماه أيضاً سنة ١٩٣٠ (برهان الدين) فقد أراده الوالد العظيم أن يكون البرهان العظيم الذي يعزز الدين ويعز المسلمين. وكان مولد (محمد برهان الدين) خيراً وبركة، فقد تولى أبوه في عام مولده (١٩١٥) مهام جليلة، وشهد العالم الإسلامي احتفالات مزدوجة، تحتفي بالداعي الفاطمي الأجل الجديد السلطان طاهر سيف الدين، وتحتفل بمولد الطفل السعيد الشبل المجيد، وبات المسلمون في سعادة جارفة، ينظرون إلى الغد القريب وإلى المستقبل البعيد، بروح التفاؤل والأمل والثقة والاطمئنان.

كتب الأب الحنون، السلطان العظيم، في مذكرته الشخصية، يخلد مولد ابنه البار، سلطان المستقبل السعيد، فكانت هذه هي كلماته المباركة البليغة:

(وهب الله تعالى عبده اللاجئ إليه في كل حين، مملوك آل محمد نبيه للطيبين الولد الميمون الأعز المسمى بمحمد، ليلة السبت، ليلة العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلثمائة وثلاث وثلثين من الهجرة المباركة، مطابق السادس من مارس سنة ١٩١٥م، طول الله عمره وأنبته نباتاً حسناً وجعله في مهد كلايته وحفظه، ولحظه بأراف لحظة، ورزقه علم الحق المبين، وبلغه فيه إلى أعلى مراقي البالغين، ووفقه مع عباد الله لعبادة العلم الصالح الذي هو المتجر الرابع، وجعله خادماً للدعوة الغراء، باذلاً جهده في خدمتها، شاكراً لنعمتها، طالباً لرضى صاحبها ولي الله في أرضه وحجته على عباده، ممهداً مهاد رشاده، موفقاً لسلوك نهج سداذه، وأعاده بكلماته التامة من شر كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة، وبلغ عبده الأقل فيه نهاية الأمل، بحق رسوله محمد خير الرسل، وآله الطاهرين السادة النبيل، صلوات الله عليهم).

واستجاب الله عز وجل دعاء عبده المؤمن الصادق فأنبت (محمد برهان الدين) النبات الحسن، ورزقه علم الحق المبين، وأحاطت به العناية الإلهية ترعاه وتلحظه حتى أصبح خير خلف لخير سلف.

واهتم الأسد بتنشئة شبلة النشأة الإسلامية والعربية المثالية، فنبغ في اللغة العربية، وتعمق في الآداب والعلوم والفنون الإسلامية، واستفاد من علوم وأفكار العصر الحديث ودرس التاريخ الفاطمي الزاهر، فوقف على أمجاد الأئمة الفاطميين وما خلفوه من تراث حضاري خالد.

وأصبح الشاب (محمد برهان الدين) يمثل الشاب المسلم العصري، فمارس ألواناً من الرياضة البدنية، فالعقل السليم دائماً في الجسم السليم، كما مارس الفروسية وما يحيط بها من أخلاقيات رفيعة وشجاعة فائقة، وقام بكثير من الرحلات المفيدة ونمت معارفه وأصبح الصيد من هواياته الخاصة وهي تدل على الجرأة والإقدام.

وفي سنة ١٩٣٠ أصبح (محمد) في الخامسة عشر من عمره المجيد السعيد واحتفل المسلمون بالعهد والميثاق اللذين تقدم بهما الشاب المؤمن النابغ إلى والده العظيم، الداعي الفاطمي الأجل،

السلطان طاهر سيف الدين، وفي هذا الاحتفال التاريخي، أطلق السلطان العظيم على ابنه الرشيد لقب (برهان الدين) ورفعته إلى مرتبة (المؤمن البليغ) وقرت عيون المؤمنين، وتوجهوا إلى المولى سبحانه وتعالى بالدعاء لسلطانهم، أن يجعله ذخراً للإسلام وموثلاً للمسلمين ويدات خطوة جديدة سعيدة رشيدة على طريق الدعوة الفاطمية المجيدة.

ويبدأ الشاب المؤمن النابه يقوم بواجبه المقدس نحو رفعة الإسلام، وهداية المسلمين، فكان يؤم المؤمنين في صلوات الجمعة، ويقوم بدروس الوعظ والإرشاد، في مختلف المدن، فيلقى في كل مكان يحل به الترحيب والتكريم، وتلهج بذكره الألسنة وتخفق بحبه القلوب، ثم قام برحلات مفيدة مباركة إلى الأماكن المقدسة المختلفة فأفاد أهلها بعلمه وثقافته.

وفي سنة ١٣٥٢ بعد الهجرة وفي ليلة السابع والعشرين من رجب وهي الليلة التي يحتفل فيها المسلمون جميعاً بذكرى الإسراء والمعراج احتفل المسلمون أيضاً بحدث جليلي مبارك فقد أعلن السلطان العظيم الداعي الأجل سيف الدين، أنه يعهد بأمانة الدعوة الفاطمية، ورسالتها المقدسة، إلى ابنه الراشد النابه المحبوب محمد برهان الدين.

واهتزت جدران المسجد القديم في (سورت) والذي يبلغ عمره مائة عام، إذ بناه الداعي الثالث والأربعون عبد علي سيف الدين، من صيحات الفرح والتأييد، وترددت في جنبات هذا المسجد التاريخي، عبارات المباركة والدعاء، ورنّت الأنظار إلى أمل المستقبل، الشاب المؤمن محمد برهان الدين، الذي كان حينئذ في التاسعة عشر من عمره المجيد.

أصبح (محمد برهان الدين) في تلك الليلة الخالدة المباركة (المأذون المطلق) وولي العهد، وحامل لواء الدعوة الفاطمية بعد والده العظيم وتوجه الوالد الأجل إلى ابنه الكريم بالنصائح الغالية والتوجيهات السديدة، يرسم له خطى المستقبل الزاهر.

سجل السلطان العظيم طاهر سيف الدين، هذا الحدث التاريخي الجليل في رسالته من رسائله القيمة، فتحدث عن اهتمامه بتنشئة ولي عهده الكريم على مكارم الأخلاق وعنايته بتثقيفه ثقافة عالية كاملة، ثم قال:

(فلما أصبح هذا الولد الأعز بحمد الله ويسواري بركات وليه عليه السلام، عالماً حبراً كاملاً، وصار براق العلم البارق المأخوذ من أرباب التأييد له حاملاً عرجت به إلى سماء التربة السامية يوم المبعث المبارك الشريف المصيبة عنه ليلة المعراج وأسرجته في ليلة السترسراجاً منيراً وما أضوءه من سراج، وأرقيته بالهيام الله، والهيام وليه إلى رتبة الإذن العالية قدراً، السامية فخراً وصرحت له في ذلك اليوم المبارك يوم المبعث الشريف القدر السامي، الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم وآله الطاهرين الذين هم لله حسنى الأسامي، بأني أقمت ولدي هذا عبده المسمى محمد في مقامي، بالهيام الله والهيام وليه الذي هو مولاي وإمامي، إذ وجدته له مثلاً يقوم بأمر الدعوة بعدي ويسلك المؤمنين الطريقة المثلى.

ومضى (المأذون المطلق) الجديد، في طريق المجد والفخار، فقد أنعم عليه والده العظيم

والسلطان الأجل في سنة ١٣٥٩هـ في ذكرى ميلاده، بلقبين كريمين هما (تاج الدعوة الطيبية الغراء) و(قرة عين إمام المتقين).

وشارك الابن البار، الشاب المؤمن، تاج الدعوة، وقرة العيون جميعاً، الأب العظيم، كفاحه وجهاده، من أجل رفعة الإسلام ونهضة المسلمين، فنصر الله عز وجل عبديه المؤمنين المخلصين على أعداء دينه الحق كما ساهم معه في أعماله الحضارية وجهوده الفكرية العظيمة، وفي النهضة بجماعة البهرة المجيدة فأصبحت حاملة لواء الحضارة الفاطمية، الإسلامية العربية، الزاهرة، وشارك (المأذون) أباه (الداعي الأجل) لقاءاته التاريخية بملوك ورؤساء وزعماء دول العالم، فاشتهر ذكره في الآفاق.

وفي ٢٧ من ذي القعدة سنة ١٣٥٤هـ، وفي يوم ميلاد السلطان الأجل طاهر سيف الدين، احتفل الوالد العطوف بزواج ابنه البار (المأذون المطلق) محمد برهان الدين، في احتفالات شائقة، شارك فيها آلاف المؤمنين المخلصين، وازدانت الجامعة السيفية بالأنوار الساطعة التي ملأت مدينة (سورت) ضياء وسناء، وهي الجامعة الإسلامية العريقة التي تحفظ التراث الفاطمي الزاهر، وعلوم الأئمة الأشراف، ومعارف علمائهم الأجلاء، فأصبحت بذلك جديرة بأن تكون وريثة الجامعة الأزهرية الفاطمية في حمل لواء العلم والمعرفة.

واحتفلت طائفة البهرة المجيدة سنة ١٩٦٣ بالعيد الذهبي لتولي السلطان والداعي الفاطمي الأجل طاهر سيف الدين رسالة الدعوة الفاطمية، فكان الداعي الحادي والخمسين في سلسلة الدعاة الأمجاد، والتف المؤمنون المخلصون حول سلطانهم الأجل، والمأذون الجليل، معترفين بفضلهما وجهودهما في سبيل الحضارة الإسلامية.

وفي ٢١ نوفمبر ١٩٦٥ (٩١ رجب ١٣٨٥ هـ) اهتزت أرجاء العالم وهي تستقبل الأنباء المؤسفة التي تحمل انتقال السلطان والداعي الأجل طاهر سيف الدين إلى جوار ربه.

بعد أن أدى واجبه المقدس نحو المولى عز وجل، ونحو الجماعة الإسلامية في كل مكان. شيع الابن البار الجثمان الطاهر لوالده العظيم إلى مثواه الأخير، مستمطراً عليه الرحمات، معاهداً الله عز وجل، أن يمضي في نفس الطريق المجيد، طريق الحق والحضارة الذي خطه الراحل العظيم، وأن يكمل الرسالة الكبيرة التي حمل لواءها الداعي الفاطمي الأجل الحادي والخمسون.

واستقبل المسلمون جميعاً عهد الداعي الفاطمي الأجل الثاني والخمسون السلطان محمد برهان الدين بالاستبشار والتفاؤل، فقد عرفوه وخبروه، فهو المؤمن الصادق، العالم الجليل، الإنسان الفاضل، وهذا الشبل من ذاك الأسد، والابن دائماً سر أبيه، كما يقول الحكماء.

وبدأت صفحات أخرى مشرقة في تاريخ الدعوة الفاطمية الزهراء.

وفي اجتماع عام، تاريخي خالد، قرأ الداعي الأجل الثاني والخمسين الميثاق وأعلن تعيين سيدي خزيمة قطب الدين مأذوناً ولقي هذا التعيين ترحيب جميع المسلمين ومباركتهم.